

الإمام أبو بكر بن محمد بن علي

العبار بن علي

عليه السلام

رائد الكرامة والفداء في الأسيال

تأليف

بافشر نفي الهنشي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ
يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ
يَلْحَقُوا بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ *
يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
الْمُؤْمِنِينَ

سورة آل عمران: ١٦٩ - ١٧١

الإهداء

إلى ... الفاتح العظيم الذي احتلّ قلوب الناس وعواطفهم.

إلى ... أنشودة الأحرار في كل زمان ومكان.

إلى ... أبيّ الضيم، وسيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام.

أرفع . بتواضع . هذه الدراسة عن حياة أبي الفضل العباس عليه السلام . الذي جسّد في سلوكه مع

أخيه الحسين عليه السلام حقيقة الأخوة الصادقة، ففداه بنفسه، ووقاه بمهجته، راجياً التفضّل عليّ بالقبول.

بين يديك

يا قمر بني هاشم وفخر عدنان

أنت . يا قدوة الثوار والأحرار . قد تألقت في سماء هذا الشرف، رمزاً للبطولات، وعنواناً للتضحية والفداء، فقد رأيت الحكم الأموي السحيق يسوس المجتمع نحو الدمار الشامل، يسحق الكرامات، ويقضي على الحريات، ويمتصّ الأفتوات ويقود المجتمع إلى حياة بائسة لا ظلّ فيها للعدل الاجتماعي والعدل السياسي، فرفعت راية التحرير مع أخيك أبي الأحرار وسيّد الشهداء عليه السلام الذي جسّد آمال الشعوب وطموحاتها، وسعى لتحرير إرادتها، وإعادة كرامتها.

لقد وقفت مع أخيك في خندق واحد فرفعتما كلمة الله المهادفة إلى كرامة الإنسان، وبناء حياة آمنة مستقرّة لا ظلّ فيها للظلم والطغيان.

أما أنت . يا أبا الفضل . فكنت هبة من الله لهذه الأمة، فقد فتحت لها آفاقاً مشرقة من الحرية والكرامة، وعلمتها أنّ التضحية يجب أن تكون خالصة لله، وبعيدة كلّ البعد عن الرغبات والعواطف وسائر الميول التي مألها إلى التراب، وبهذه الروح الإسلامية الأصيلة كانت تضحيتك . يا أبا

الفضل . فقد اتّسمت بالدفاع عن الحق، والذبّ عن القيم والمبادئ وهذا هو السرّ في خلود
تضحيتك، وتفاعلها مع عواطف الناس على امتداد التاريخ.
أما أنت . يا قمر بني هاشم . فقد أقيمت صروح الحق في دنيا العرب والإسلام وشيّدت
للمسلمين مجدّاً شامخاً بنصرتك لأخيك سيّد الشهداء، الذي نافح من أجل أن تسود العدالة
الاجتماعية في الأرض وتوزع خيرات الله على المضطهدين والمحرومين، وتحملت معه أعباء
هذه الرسالة، وبهذا كنت مع أخيك، وسائر الشهداء المجدين من أهل البيت وأنصارهم
الطلائع المقدّسة لشهداء الحق في جميع أنحاء الأرض.

تقديم

[١]

وبرز أبو الفضل العباس عليه السلام على مسرح التاريخ الإسلامي كأعظم قائد فذّ لم تعرف له الإنسانية نظيراً في بطولاته النادرة بل ولا في سائر مثله الأخرى التي استوعبت . بفخر . جميع لغات الأرض .

لقد أبدى أبو الفضل يوم الطف من الصمود الهائل، والارادة الصلبة ما يفوق الوصف، فكان برياطة جأشه، وقوة عزيمته جيشاً لا يقهر فقد أربع عسكر ابن زياد، وهزمهم نفسياً، كما هزمهم في ميادين الحرب .

ان بطولات أبي الفضل كانت ولا تزال حديث الناس في مختلف العصور، فلم يشاهدوا رجلاً واحداً مثقلاً بالهموم والنكبات يحمل على جيش مكثّف مدعم بجميع آلات الحرب قد ضمّ عشرات الآلاف من المشاة وغيرهم فيلحق بهم أفدح الخسائر من معداتهم وجنودهم، ويقول المؤرخون عن بسالته . يوم الطف . إنه كلما حمل على كتيبة تفرّ منهزمة من بين يديه يسحق بعضها بعضاً قد حيّم عليها الموت، واستولى عليها الفزع والذعر قد خلعت منها الأفتدة والقلوب، ولم تغن عنها كثرتها شيئاً .

انّ شجاعة أبي الفضل وسائر مواهبه ومزاياه مما تدعو إلى الاعتزاز

والفخر ليس له وللمسلمين فحسب، وإنما لكل إنسان يدين لإنسانيته، ويخضع لقيمتها الكريمة.

[٢]

وبالإضافة إلى ما يتمتع به أبو الفضل العباس عليه السلام من البطولات الرائعة فإنه كان مثلاً للصفات الشريفة، والنزعات العظيمة، فقد تجسدت فيه الشهامة والنبيل والوفاء والمواساة، فقد وصى أخاه أبا الأحرار الإمام الحسين عليه السلام في أيام محنته الكبرى، ففداه بنفسه ووقاه بمهجته، ومن المقطوع به أن تلك المواساة لا يقدر عليها إلا من امتحن الله قلبه للإيمان، وزاده هدى.

[٣]

ومثل أبو الفضل العباس عليه السلام في سلوكه مع أخيه الإمام الحسين عليه السلام حقيقة الأخوة الإسلامية الصادقة، وأبرز جميع قيمها ومثلها، فلم يبق لون من ألوان الأدب، والبرّ والإحسان إلا قدّمه له، وكان من أروع ما قام به في ميادين المواساة له، انه حينما استولى على الماء يوم الطفّ تناول منه غرفة ليشرّب، وكان قلبه الزاكي كصالية الغضا من شدّة الظمّ، فتذكّر في تلك اللحظات الرهيبة عطش أخيه الإمام الحسين وعطش الصبية من أهل البيت عليهم السلام، فدفعه شرف النفس، وسموّ الذات إلى رمي الماء من يده، ومواساتهم في هذه المحنة الحازية، تصفّحوا في تاريخ الأمم والشعوب فهل تجدون مثل هذه الأخوة الصادقة؟! انظروا في سجلّات نبل الدنيا فهل ترون مثل هذا النبيل، ومثل هذا الإيثار!؟

الله أكبر أي رحمة مثل هذه الرحمة، وأية مودّة مثل هذه المودّة!!
إن الإنسانية بجميع قيمها ومثلها لتتحني إجلالاً وخضوعاً أمام أبي الفضل على ما أبداه
من عظيم النبل لأخيه الإمام الحسين أبي الأحرار وسيد الشهداء عليه السلام.

[٤]

والشيء الذي يدعو إلى الاعتزاز بتضحية أبي الفضل ونصرته لأخيه الإمام الحسين، أنّها
لم تكن بدافع الأخوة والرحم الماسة وغير ذلك من الاعتبارات السائدة بين الناس، وأنّما كانت
بدافع الإيمان الخالص لله، ذلك الإيمان الذي تفاعل مع عواطف أبي الفضل، وصار عنصراً
من عناصره، ومقوماً من مقوماته، وقد أدلى بذلك في رجزه حينما قطعت يمينه التي كانت
تفيض براً وعطاءً للناس، قائلاً:

والله إن قطعتــــــــــــــــتم يمينــــــــــــــــني إليّ أحامي أبداً عن ديني

وعن إمام صادق اليقين

ان الرجز في تلك العصور كان يمثّل الأهداف والمبادئ والقيم التي من أجلها يقاتل
الشخص، ويستشهد في سبيلها، ورجز سيدنا العباس عليه السلام صريح واضح في أنّه أنّما يقاتل
دفاعاً عن الدين، ودفاعاً عن المبادئ الإسلامية الأصيلة التي تعرضت إلى الخطر أيام الحكم
الأموي الأسود، كما أنّه أنّما يقاتل دفاعاً عن إمام المسلمين سبط رسول الله وريحانته الإمام
الحسين المدافع الأوّل عن كرامة الإسلام، فهذه هي العوامل التي دفعته إلى التضحية، وليس
هناك أي دافع آخر وهذا هو السرّ في جلال تضحيته،

وخلودها عبر القرون والأجيال.

[٥]

لقد استشهد أبو الفضل العباس من أجل المبادئ العليا التي رفع شعارها أبو الأحرار أخوه الإمام الحسين عليه السلام، والتي كان من أهمها أن يقيم في هذا الشرق حكم القرآن، وينشر العدل بين الناس ويوزع عليهم خيرات الأرض، فليست هي لقوم دون آخرين.

لقد استشهد أبو الفضل من أجل أن يعيد للإنسان المسلم حرّيته وكرامته، وينشر بين الناس رحمة الإسلام، ونعمته الكبرى الهادفة لاستئصال الظلم والجور، وبناء مجتمع لا ظلّ فيه لأي لون من ألوان الفزع، والخوف.

لقد حمل أبو الفضل مشعل الحرية والكرامة، وقاد قوافل الشهداء إلى ساحات الشرف، وميادين العزة، والنصر للشعوب الإسلامية التي كانت تترزح تحت وطأة الظلم والجور.

لقد انطلق أبو الفضل إلى ميادين الجهاد من أجل أن ترتفع كلمة الله تعالى عالية في الأرض، تلك الكلمة التي هي منهج كامل للحياة الكريمة بين الناس.

[٦]

وفجّر الإمام أبو الأحرار ثورته الكبرى التي أوضح الله بها الكتاب وجعلها عبرة لأولي الألباب، فدكّ بها حصون الظلم، وقلاع الجور.

ولم يفجّر الإمام الحسين عليه السلام ثورته الرائدة العملاقة أشراً ولا بطراً،

ولا ظالماً، ولا مفسداً . حسب ما يقول . وإنما أراد تغيير الواقع المرير الذي تعيشه الأمة من جرّاء الحكم الأموي المنحرف عن جميع الأعراف والقوانين، ذلك النظام الذي أحال حياة الناس إلى جحيم لا يطاق، فقد عمّت البلاد الإسلامية بجميع صنوف الجور والإرهاب، وكان من أعظمها مخنة وأشدّها بلاءً البلاد الخاضعة لحكم زياد بن أبيه، والي معاوية على العراق، وأخيه اللاشعري، الذي أجاج نار الفتنة، وحكم بين الناس بغير ما أنزل الله، فأخذ البريء بالسقيم، والمقبل بالمدير، وقتل على الظنّة والتهمة، كما أعلن ذلك، وطبقه بالفعل على الحياة العامة بين الناس.

[٧]

وأن سبط الرسول ﷺ، وأمل الإسلام، والمسؤول الأوّل عن رعاية المسلمين، وصيانة حياتهم والواقع الاجتماعي الذي تعيشه الأمة، والذي ينذر بخطر عظيم على حياتها العقائدية، والفكرية والاجتماعية، فقد تحكّم في مصيرها جبابرة الأمويين، وطغاة الرأسمالية القرشية، التي حملت معول الهدم على جميع ما أسّسه الإسلام من مجد أصيل وخلق رفيع للأمة، بالإضافة إلى أنّها أخذت تستنزف الموارد الاقتصادية في العالم الإسلامي، وتنفقها على شهواتها، ورغباتها الخاصة، فهبّ أبو الأحرار لإنقاذ المسلمين، وإعادة الحياة الكريمة لهم، فما أعظم عائدته على الإسلام، وما أكثر أطفاه وأياديه على المسلمين.

[٨]

ان ملحمة كربلاء من أهم الأحداث العالمية، بل ومن أهم ما حققته

البشرية من إنجازات رائعة في ميادين الكفاح المسلح ضدّ الظلم والطغيان، فقد غيرت مجرى تاريخ الشعوب الإسلامية، وفتحت لها آفاقاً مشرقة للتمرد على الظلم والطغيان. لقد ألهمت هذه الملحمة الخالدة عواطف الأحرار، ودفعتهم إلى النضال المسلح في سبيل تحرير المجتمع من نير العبودية والذلّ، وإنقاذه من الحكم اللاشعري.

[٩]

لقد انتصر سيّد الشهداء في ثورته الخالدة، وانتصرت أهدافه ومبادئه العظيمة، وظلّ مثلاً خالداً للكفاح المقدّس يطارد الظالمين والطغاة في كل عصر وزمان، ويمدّ الثوّار بروح التضحية والفداء.

ان من الانتصارات الرائعة التي حقّقها أبي الضمير في ثورته أنه جرّد الحكم الأموي من الشرعية، وأنّه لا يمثّل الإسلام، ولا المسلمين بأي حال من الأحوال، وإنّما هو حكم ديكتاتوري قائم على النطع والسيف لا على رضى الأمة واختيارها.

لقد وضع أبو الأحرار العبوات الناسفة في أروقة الحكم الأموي ففجّرتّها، ونسفت معالم زهوهم وفجورهم وطغيانهم، وظلّوا مثلاً أسوداً لكل حكم منحرف عن سنن الحق والعدل.

[١٠]

لقد أيقظت ثورة أبي الأحرار الشعوب الإسلامية من تخديرها وسباتها، فانطلقت كالمارد الجبّار في ثورات متلاحقة، وهي ترفع شعار التحرير، وشعار الاستقلال، وشعار الكرامة من أجل التخلّص من ذلك

الحكم الأسود.

لقد قامت الشعوب الإسلامية في ثورات متلاحقة كانت امتداداً لثورة الحسين عليه السلام، حتى أطاحت بالحكم الأموي، وأزلته من دنيا الوجود.

[١١]

ومن الجدير بالذكر أن كارثة كربلاء، وما لحق بالإمام الحسين عليه السلام من التنكيل، والاعتداء الصارخ، لم يأت ذلك عفواً، وإنما كان من النتائج المباشرة للانحرافات، والسلوك في المنعطفات السياسية من جانب الحكام والمسؤولين الذين كانوا ينظرون إلى السلطة بأنها مغنم، ووسيلة للظفر بالثراء العريض، ولم يعوا أن الإسلام اعتبر السلطة أداة لخدمة المجتمع، وتطوير حياته الفكرية والاقتصادية، وأنها مسؤولة أمام الله عن اقتصاد الأمة فيجب عليها الاحتياط فيه كأشد ما يكون الاحتياط فليس لرئيس الدولة، ولا لغيره من أجهزة الحكم أن يصطفوا لأنفسهم وذويهم أي شيء من أموال الدولة.

وكان على رأس الحكام المنحرفين ملوك بني أمية الذين اتخذوا مال الله دولاً وعباد الله خولاً، وبالإضافة إلى ما اقترفوه من ظلم الأمة والاعتداء على كرامتها، فاتهم عمدوا إلى ظلم العلويين، والإجهاز على شيعتهم، وقد شاهد أبو الفضل عليه السلام الحن الشاقة والعسيرة التي حلت بأهل بيته ومحبيهم، ومما لا ريب فيه أنها تركت في أعماق نفسه أفسى ألوان الحن، والآلام.

[١٢]

أما دور سيدنا العباس عليه السلام في ملحمة كربلاء فإنه يأتي في الأهمية بعد أخيه أبي الأحرار الإمام الحسين عليه السلام صانع هذه الملحمة الخالدة في

دنيا الحقّ والعدل، وقد فاق جميع أصحاب الإمام الحسين عليه السلام، وأهل بيته المكرمين، وذلك بما قدّمه من عظيم الخدمات لأخيه، بالإضافة إلى مواقفه البطولية الرائعة، وصموده الهائل أمام معسكر ابن زياد، وقد أبدى من البسالة ما يذهل الأفكار ويجيّز الألباب، وكان يشيع في نفوس أصحاب أخيه وأهل بيته العزم والتصميم على التضحية والجهاد بين يديه، فقد استهان بالموت وسخر من الحياة، وقد انطبعت هذه الظاهرة في نفوسهم فاعتنقوا الشهادة، وانطلقوا إلى ميادين الجهاد ليرفعوا كلمة الله في الأرض.

[١٣]

وكان العباس عليه السلام أيام المحنة الكبرى التي حلّت بأخيه ملازماً له لم يفارقه، وقدّم له جميع ألوان البرّ والإحسان، فكان يقيه بنفسه ويفيده بمهجته، فهو صاحب لوائه، ومدير شؤونه، والمتصدّي لخدماته، ويقول الرواة: أنّه قد استوعب حبّه والإخلاص له قلب أخيه الإمام الحسين عليه السلام حتى فداه بنفسه، وكان عليه ضعيفاً، فلم يسمح له بالحرب حتى بعد مقتل أصحابه وأهل بيته، لأنّه كان يشعر بالقوة والمنعة، ما دام حياً إلى جانبه، ولما استشهد العباس شعر الإمام الحسين بالوحدة والغربة والضياع بعده وفقد كلّ أمل له في الحياة، وراح ييكي عليه أمرّ البكاء، ويندبه بذوب روحه، وسارع إلى ساحة الحرب ليلتقي به في جنان الخلد.

سلام الله عليك يا أبا الفضل ففي حياتك وشهادتك ملتقى أمين لجميع القيم الإنسانية، وحسبك أنّك وحدك كنت انموذجاً رائعاً لشهداء الطفّ الذين احتلّوا قمّة الشرف والمجد في دنيا العرب والإسلام.

[١٤]

كان بوّدي قبل حفنة من السنين أن أتشرّف بالبحث عن سيرة أبي الفضل العباس عليه السلام رائد الشرف والكرامة لهذه الأمة، وقد دعاني إلى ذلك . بإصرار . بعض السادة من فضلاء الحوزة العلمية في النجف الأشرف، إلا أنّ انشغالي بتأليف موسوعة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام قد شغلني عن ذلك، وقد ألمت كارثة من كوارث الزمن ببعض ولدي فتوسّلت، وتوسل ضارعاً إلى الله تعالى أن يكشف عنه ما هو فيه، وينقذه وينجّيه فاستجاب الله دعائي ودعائه فأنجاه مما هو فيه والحمد لله، وقد طلب منّي أن أكتب رسالة عن حياة أبي الفضل وسيرته وشهادته، فاستجبت له، وجمّدت الموضوع الذي بيدي، واتجهت صوب أبي الفضل آملاً من الله تعالى أن أوفّق إلى إعطاء صورة متميّزة وكاملة عن حياته، وأن لا أكون قد جافيت الواقع أو ابتعدت عن القصد فيما كتبتة عنه أنّه تعالى وليّ القصد والتوفيق.

النجف الأشرف

باقر شريف القرشي

١٤١٢ هـ . ١٩٩٢ م

ولادته ونشأته

وقبل أن أتحدّث عن ولادة أبي الفضل العباس عليه السلام ونشأته أعرض . بإيجاز . إلى نسبه الوضّاح، ذلك النسب الكريم الذي كان له الأثر التام في بناء شخصيته العظيمة، وتكوين سلوكه المشرف القائم على الشرف والفضيلة وفيما يلي ذلك:

نسبه الوضّاح

ليس في دنيا الأنساب نسبٌ أسمى، ولا أرفع من نسب أبي الفضل فهو من صميم الأسرة العلوية، التي هي من أجلّ وأشرف الأسر التي عرفتها الإنسانية في جميع أديانها، تلك الأسرة العريقة في الشرف والمجد، التي أمدّت العالم العربي والإسلامي بعناصر الفضيلة، والتضحية في سبيل الخير، وما ينفع الناس، وأضاءت الحياة العامة بروح التقوى، والإيمان، وهذا عرض موجز للأصول الكريمة التي تفرّع قمر بني هاشم، وفخر عدنان منها.

الأب:

أمّا الأب الكريم لسيدنا العباس عليه السلام فهو الإمام أمير المؤمنين عليه السلام،

وصي رسول الله ﷺ، وباب مدينة علمه، وختنه على حبيبته، وهو أول من آمن بالله، وصدق رسوله وكان منه بمنزلة هارون من موسى، وهو بطل الإسلام، والمنافع الأول عن كلمة التوحيد، وقد قاتل الأقربين والأبعدين من أجل نشر رسالة الإسلام وإشاعة أهدافه العظيمة بين الناس، وقد تمثلت بهذا الإمام العظيم جميع فضائل الدنيا، فلا يدانيه أحد في فضله وعلمه، وهو . بإجماع المسلمين . أثرى شخصية علمية في مواهبه وعبقرياته بعد الرسول محمد ﷺ، وهو غني عن البيان والتعريف، فقد استوعبت فضائله ومناقبه جميع لغات الأرض ... ويكفي العباس شرفاً وفخراً أنه فرع من دوحة الإمامة، وأخ لسبطي رسول الله ﷺ .

الأم:

أما الأم الجليلة المكرمة لأبي الفضل العباس ؑ فهي السيدة الزكية فاطمة بنت حزام بن خالد ..، وأبوها حزام من أعمدة الشرف في العرب، ومن الشخصيات النابغة في السخاء والشجاعة وقرى الأضياف، وأما أسرتها فهي من أجل الأسر العربية، وقد عُرفت بالنجدة والشهامة، وقد أشتهر جماعة بالنبل والبسالة منهم:

١ . عامر بن الطفيل:

وهو أخو عمرة الجدة الاولى لأم البنين، وكان من ألمع فرسان العرب في شدة بأسه، وقد ذاع اسمه في الأوساط العربية وغيرها، وبلغ من عظيم شهرته ان قيصر إذا قدم عليه وافد من العرب فان كان بينه وبين عامر

نسب عظم عنده، وبجّله وأكرمه، وإلاّ أعرض عنه.

٢ . عامر بن مالك:

وهو الجدّ الثاني للسيدة أمّ البنين، وكان من فرسان العرب وشجعانهم ولقّب بملاعب الأسنّة لشجاعته الفائقة، وفيه يقول الشاعر:
يلاعب أطراف الأسنّة عامر فراح له حظّ الكتائب أجمع
وبالإضافة إلى شجاعته فقد كان من أباة الضيم، وحفظة الذمار ومراعاة العهد، ونقل المؤرّحون عنه بوادر كثيرة تدلّل على ذلك.

٣ . الطفيل:

وهو والد عمرة الجدة الأولى لأمّ البنين كان من أشهر شجعان العرب، وله أشقاء من خيرة فرسان العرب، منهم ربيعة، وعبيدة، ومعاوية، ويقال لأئمهم (أمّ البنين) وقد وفدوا على النعمان بن المنذر فرأوا عنده الربيع بن زياد العبسي، وكان عدوّاً وخصماً لهم، فاندفع لبيد وقد تميّز من الغيظ فخطب النعمان:

يا واهب الخير الجزيل من سعة حن بنو أمّ البنين الأربعة
ونحن خير عامر بن صعصعة المطعمون الجفنة المددعة
الضاريون الهام وسط الحيصعة إليك جاوزنا بالاداً مسبعة
تخبر عن هذا خبيراً فاسمعه مهلاً أبيت اللعن لا تأكل معه

فتأثر النعمان للربيع، وأقصاه عن مسامرته، وقال له:

شردّ برحلك عني حيث شئت ولا كثر عليّ ودع عنك الأباطيلا

قد قيل ذلك إن حقاً وإن كذباً فما اعتذارك في شيء إذا قيلاً
ودلّ ذلك على عظيم مكانتهم، وسموّ منزلتهم الاجتماعية عند النعمان فقد بادر إلى
اقصاء سميره الربيع عن مسامرته.

٤ . عروة بن عتبة:

وهو والد كبشة الجدة الثانية لأم البنين، وكان من الشخصيات البارزة في العالم العربي،
وكان يفد على ملوك عصره، فيكرمونه، ويجزلون له العطاء، ويحسنون له الوفاة^(١).
هؤلاء بعض الأعلام من أجداد السيدة الكريمة أم البنين، وقد عرفوا بالنزعات الكريمة،
والصفات الرفيعة، وبحكم قانون الوراثة فقد انتقلت صفاتهم الشريفة إلى السيدة أم البنين ثم
منها إلى أبنائها الممجدين.

قران الإمام بأم البنين:

ولما ثكل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بوفاة بضعة الرسول صلى الله عليه وآله وريحانته سيّدة نساء العالمين
فاطمة الزهراء عليها السلام ندب أخاه عقيلاً، وكان عالماً بأنساب العرب أن يخطب له امرأة قد
ولدتها الفحول ليتزوجها لتلد غلاماً زكياً شجاعاً لينصر ولده أبا الشهداء في ميدان كربلاء^(٢)
فأشار عليه عقيل بالسيدة أم البنين الكلابية فأنه ليس في العرب من هو أشجع من أهلها،
ولا أفرس، وكان لبيد الشاعر يقول فيهم: « نحن خير عامر بن

(١) قمر بني هاشم ١: ١١ - ١٣ ذكر المحقق الشيخ عبد الواحد المظفر في كتابه بطل العلقمي عرضاً مفصلاً لمآثر
هذه الأسرة الكريمة.

(٢) تنقيح المقال ٢ / ١٢٨.

صعصعة « فلا ينكر عليه أحد من العرب، ومن قومها ملاعب الأسنّة أبو براء الذي لم يعرف العرب مثله في الشجاعة ^(١)، فدببه الإمام إلى خطبتها، وانبرى عقيل إلى أبيها فعرض عليه الأمر فأسرع فرحاً إليها فاستجابت باعتزاز وفخر، وزفت إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وقد رأى فيها العقل الراجح، والإيمان الوثيق وسموّ الآداب، ومحاسن الصفات، فأعزّها، وأخلص لها كأعظم ما يكون الإخلاص.

رعايتها لسبطي النبي صلى الله عليه وآله:

وقامت السيّدة أمّ البنين برعاية سبطي رسول الله صلى الله عليه وآله وريحانتيه وسيّدي شباب أهل الجنّة الحسن والحسين عليهما السلام، وقد وجدا عندها من العطف والحنان ما عوّضهما من الخسارة الأليمة التي مُنّيا بها بفقد أمّهما سيّدة نساء العالمين فقد توفّيت، وعمرها كعمر الزهور فقد ترك فقدها اللوعة والحزن في نفسيهما.

لقد كانت السيدة أمّ البنين تكثّر في نفسها من المودّة والحبّ للحسن والحسين عليهما السلام ما لا تكّنه لأولادها اللذين كانوا ملء العين في كمالهم وآدابهم.

لقد قدّمت أمّ البنين أبناء رسول الله صلى الله عليه وآله، على أبنائها في الخدمة والرعاية، ولم يعرف التاريخ أن ضرةً تخلص لأبناء ضرّتها وتقدّمهم على أبنائها سوى هذه السيّدة الزكيّة، فقد كانت ترى ذلك واجباً دينياً لأن الله أمر بمودّتهما في كتابه الكريم، وهما وديعة رسول الله صلى الله عليه وآله، وريحانتاه، وقد

(١) تنقيح المقال ٢ / ١٢٨.

عرفت أمّ البنين ذلك فوفت بحقهما وقامت بخدمتهما خير قيام.

مكانتها عند أهل البيت

ولهذه السيّدة الزكية مكانة متميّزة عند أهل البيت عليهم السلام، فقد أكبّروا إخلاصها وولاءها للإمام الحسين عليه السلام، وأكبّروا تضحيات أبنائها المكرمين في سبيل سيّد الشهداء عليه السلام، يقول الشهيد الأول وهو من كبار فقهاء الإمامية:

كانت أمّ البنين من النساء الفاضلات، العارفات بحق أهل البيت عليهم السلام، مخلصه في ولائهم، محضه في مودّتهم، ولها عندهم الجاه الوجيه، والمحلّ الرفيع، وقد زارتها زينب الكبرى بعد وصولها المدينة تعزيها بأولادها الأربعة، كما كانت تعزيها أيام العيد .. «^(١).

أنّ زيارة حفيده الرسول صلى الله عليه وآله وشريكة الإمام الحسين عليه السلام في نهضته زينب الكبرى عليها السلام لأمّ البنين، ومواساتها لها بمصائبها الأليم بفقد السادة الطيبين من أبنائها، مما يدلّ على أهميّة أمّ البنين وسموّ مكانتها عند أهل البيت عليهم السلام.

مكانتها عند المسلمين:

وتحتلّ هذه السيّدة الجليلة مكانة مرموقة في نفوس المسلمين، ويعتقد الكثيرون إلى أنّ لها منزلة عظيمة عند الله، وأنّه ما التجأ إليها مكروب، وجعلها واسطة إلى الله تعالى إلاّ كشف عنه ما ألمّ به من الحن والخطوب، وهم يفرعون إليها إن ألمت بهم كارثة من كوارث الزمن أو

(١) العباس للمقرّم: ٧٢-٧٣ نقلاً عن مجموعة الشهيد الأول.

محنة من محن الأيام، ومن الطبيعي أن تكون لها هذه المنزلة الكريمة عند الله، فقد قدمت في سبيله أفلاذ أكبادها، وجعلتهم قرابين لدينه.

الوليد العظيم:

وكان أول مولود زكيّ للسيدة أمّ البنين هو سيّدنا المعظم أبو الفضل العباس عليه السلام، وقد ازدهرت يثرب، وأشرقَت الدنيا بولادته وسرت موجات من الفرح والسرور بين أفراد الأسرة العلوية، فقد ولد قمرهم المشرق الذي أضاء سماء الدنيا بفضائله ومآثره، وأضاف إلى الهاشميين مجدداً خالداً وذكرًا ندياً عاطراً.

وحينما بُشِّرَ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بهذا المولود المبارك سارع إلى الدار فتناوله، وأوسعته تقبيلاً، وأجرى عليه مراسيم الولادة الشرعية فأذّن في أذنه اليمنى، وأقام في اليسرى، لقد كان أول صوت قد اخترق سمعه صوت أبيه رائد الإيمان والتقوى في الأرض، وأنشودة ذلك الصوت.

« الله أكبر ... ».

« لا إله إلا الله ».

وارتسمت هذه الكلمات العظيمة التي هي رسالة الأنبياء، وأنشودة المتّقين في أعماق أبي الفضل، وانطبعت في دخائل ذاته، حتى صارت من أبرز عناصره، فتبني الدعوة إليها في مستقبل حياته، وتقطّعت أوصاله في سبيلها.

وفي اليوم السابع من ولادة أبي الفضل عليه السلام، قام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بحلق شعره، والتصدّق بزنته ذهباً أو فضّة على المساكين وعقّ عنه بكبش، كما فعل ذلك مع الحسن والحسين عليهما السلام عملاً بالسنة

الإسلامية.

سنة ولادته:

أفاد بعض المحققين أن أبا الفضل العباس عليه السلام وُلد سنة (٢٦ هـ) في اليوم الرابع من شهر شعبان ^(١).

تسميته:

سمى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وليده المبارك (بالعباس) وقد استشفّ من وراء الغيب انه سيكون بطلاً من أبطال الإسلام، وسيكون عبوساً في وجه المنكر والباطل، ومنطلق البسمات في وجه الخير، وكان كما تنبأ فقد كان عبوساً في ميادين الحروب التي أثارها القوى المعادية لأهل البيت عليهم السلام، فقد دمر كتابها وجندل أبطالها، وخيم الموت على جميع قطعات الجيش في يوم كربلاء، ويقول الشاعر فيه:
عبست وجوه القوم خوف الموت والعبّاس فيهم ضاحك متبسّم

كنيته:

وكُنّي سيدنا العباس عليه السلام بما يلي:

١ . أبو الفضل:

كُنّي بذلك لأن له ولداً اسمه الفضل، ويقول في ذلك بعض من رثاه:

(١) قمر بني هاشم ٢ : ٥٠ .

أبا الفضل يا من أسّس الفضل والإبا أبا الفضل إلا أن تكون له أبا وطابقت هذه الكنية حقيقة ذاته العظيمة فلو لم يكن له ولد يُسمّى بهذا الإسم، فهو . حقاً . أبو الفضل، ومصدره الفيض فقد أفاض في حياته ببرّه وعطائه على القاصدين لنبله وجوده، وبعد شهادته كان موثلاً وملجأ لكل ملهوف، فما استجار به أحد بنية صادقة إلا كشف الله ما ألمّ به من المحن والبلوى.

٢ . أبو القاسم:

كُتبي بذلك لأن له ولداً اسمه (القاسم) وذكر بعض المؤرخين أنه استشهد معه يوم الطفّ، وقدمه قرباناً لدين الله، وفداءً لريحانة رسول الله ﷺ .

ألقابه:

أما الألقاب التي تُضفي على الشخص فهي تحكي صفاته النفسية حسنة كانت أو سيئة، وقد أضيفت على أبي الفضل عليه السلام عدّة ألقاب رفيعة تنمّ عن نزعاته النفسية الطيبة، وما اتصف به من مكارم الأخلاق وهي:

١ . قمر بني هاشم:

كان العباس عليه السلام في روعة بهائه، وجميل صورته آية من آيات الجمال، ولذلك لُقّب بقمر بني هاشم، وكما كان قمرّاً لأسرته العلوية الكريمة، فقد كان قمرّاً في دنيا الإسلام، فقد أضاء طريق الشهادة، وأثار مقاصدها لجميع المسلمين.

٢ . السقاء:

وهو من أجلّ ألقابه، وأحبّها إليه، أما السبب في امضاء هذا اللقب الكريم عليه فهو لقيامه بسقاية عطاشى أهل البيت عليهم السلام حينما فرض الإرهابي المجرم ابن مرجانة الحصار على الماء، وأقام جيوشه على الفرات لتموت عطشاً ذرية النبي صلى الله عليه وآله، محرّرين الإنسانية ومنقذها من ويلات الجاهلية ... وقد قام بطل الإسلام أبو الفضل باقتحام الفرات عدّة مرّات، وسقى عطاشى أهل البيت، ومن كان معهم من الأنصار، وسنذكر تفصيل ذلك عند التعرّض لشهادته.

٣ . بطل العلقمي:

أما العلقمي فهو اسم للنهر الذي استشهد على ضفافه أبو الفضل العباس عليه السلام، وكان محاطاً بقوى مكثّفة من قبل ابن مرجانة لمنع رجحانة رسول الله صلى الله عليه وآله وسيّد شباب أهل الجنّة، ومن كان معه من نساء وأطفال من شرب الماء، وقد استطاع أبو الفضل بعزمه الجبار، وبطولته النادرة أن يجندل الأبطال، ويهزم أقزام ذلك الجيش المنحطّ، ويحتلّ ذلك النهر، وقد قام بذلك عدّة مرّات، وفي المرّة الأخيرة استشهد على ضفافه ومن ثمّ لُقّب ببطل العلقمي.

٤ . حامل اللواء:

ومن ألقابه المشهورة (حامل اللواء) وهو أشرف لواء أنّه لواء أبي الأحرار الإمام الحسين عليه السلام، وقد خصّه به دون أهل بيته وأصحابه،

وذلك لما تتوفر فيه من القابليات العسكرية، ويعتبر منح اللواء في ذلك العصر من أهمّ المناصب الحسّاسة في الجيش وقد كان اللواء الذي تقلّده أبو الفضل يرفرف على رأس الإمام الحسين عليه السلام منذ أن خرج من يثرب حتى انتهى إلى كربلاء، وقد قبضه بيد من حديد، فلم يسقط منه حتى قطعت يداه، وهوى صريعاً بجنب العلقمي.

٥ . كبش الكتيبة:

وهو من الألقاب الكريمة التي تُمنح الى القائد الأعلى في الجيش، الذي يقوم بحماية كتائب جيشه بحسن تدبير، وقوّة بأس، وقد اضفي هذا الوسام الرفيع على سيّدنا أبي الفضل، وذلك لما أبداه يوم الطفّ من الشجاعة والبرسالة في الذبّ والدفاع عن معسكر الإمام الحسين عليه السلام، فقد كان قوّة ضاربة في معسكر أخيه، وصاعقة مرعبة ومدمّرة لجيوش الباطل.

٦ . العميد:

وهو من الألقاب الجليلة في الجيش التي تُمنح لأبرز الأعضاء في القيادة العسكرية، وقد قُدّ أبو الفضل عليه السلام بهذا الوسام لأنّه كان عميد جيش أخيه أبي عبد الله، وقائد قوّاته المسلّحة في يوم الطفّ.

٧ . حامي الظعينة:

ومن الألقاب المشهورة لأبي الفضل عليه السلام (حامي الظعينة).
يقول السيّد جعفر الحلّي في قصيدته العصماء التي رثاه بها:
حامي الظعينة أين منه ربيعة أم أين من علياً أيه مكرم

وأما اضفي عليه هذا اللقب الكريم لقيامه بدور مشرف في رعاية مخدرات النبوة وعقائل الوحي، فقد بذل قصارى جهوده في حمايتهم وحراستهم وخدمتهم، فكان هو الذي يقوم بترحيلهم، وانزالهم من المحامل طيلة انتقالهم من يثرب إلى كربلاء. ومن الجدير بالذكر أن هذا اللقب اطلق على بطل من شجعان العرب وفرسانهم وهو ربيعة بن مكرم، فقد قام بحماية طعنه، وأبلى في ذلك بلاءً حسناً^(١).

(١) جاء في العقد الفريد ٣ / ٣٣١ ان دريد بن الصمة خرج ومعه جماعة من فرسان بني جشم حتى اذا كانوا في واد لبني كنانة يقال له الأخرم، وهم يريدون الغارة على بني كنانة فرأوا رجلاً معه طعينة في ناحية الوادي فقال دريد لفارس من أصحابه امض واستول على الطعينة، وانتهى الفارس إلى الرجل فصاح به خلّ عن الطعينة وانج بنفسك، فألقى زمام الناقة، وقال للطعينة:

سـيرى على رسلك سير الآمن سير دراج ذات جـاش طامـن
ان التـأني دون قـبرني شـائني ابلى بلائي فـاخبري وعائني

ثم حمل على الرجل فصرعه، وأخذ فرسه وأعطاهها للطعينة، وبعث دريد فارساً آخر لينظر ما صنع صاحبه فلما انتهى إليه رآه صريعاً فصاح بالرجل فألقى زمام الطعينة، فلما انتهى إليه حمل عليه وهو يقول:

خـل سـبيل الحـرة المنيعة انك لاق دوغماً ربيعة
في كفه خطيعة منيعة أو لا فخذها طعنة سريعة

وحمل عليه فصرعه، ولما أبطأ بعث دريد فارساً آخر لينظر ما صنع الرجلان ولما انتهى إليهما وجدتهما صريعين، والرجل يجر رحه، فلما نظر إليه قال للطعينة اقصدي قصد البيوت ثم أقبل عليه وقال:

ماذا ترى من شـيئم عابـس أما ترى الفارس بعد الفارس

أرداهما عامل رمح يابس

ثم حمل عليه فصرعه، وانكسر رحه، وارتاب دريد في امر جماعته وظن أنهم أخذوا الطعينة وقتلوا الرجل فلحقهم، وقد دنا ربيعة من الحي، فوجدهم دريد قد

٨ . باب الحوائج:

وهذا من أكثر ألقابه شيوعاً، وانتشاراً بين الناس، فقد آمنوا وأيقنوا أنه ما قصده ذو حاجة بنية خالصة إلا قضى الله حاجته، وما قصده مكروب إلا كشف الله ما ألم به من محن الأيام، وكوارث الزمان، وكان ولدي محمد الحسين ممن التجأ إليه حينما دهمته كارثة ففرج الله عنه.

إنَّ أبا الفضل نفحة من رحمت الله، وباب من أبوابه، ووسيلة من وسائله، وله عنده الجاه العظيم، وذلك لجهاده المقدس في نصره الاسلام، والذب عن أهدافه ومبادئه، وقيامه بنصرة ريحانة رسول الله ﷺ حتى استشهد في سبيله هذه بعض ألقاب أبي الفضل، وهي تحكي بعض معالم شخصيته العظيمة وما انطوت عليه من محاسن الصفات ومكارم الأخلاق (١).

ملاحمه:

أما ملاحمه فقد كان صورة بارعة من صور الجمال، وقد لُقّب بقمر بني هاشم لروعة بهائه، وجمال طلعتة، وكان متكامل الجسم قد بدت عليه

قتلوا جميعاً، فقال لربيعة: ان مثلك لا يقتل، ولا أرى معك رمحك، والخيل نائرة بأصحابها فدونك هذا الرمح فاني منصرف عنك إلى أصحابي، ومثبطهم عنك، فانصرف إلى أصحابه وقال لهم: ان فارس الظعينة قد حمأها وقتل أصحابكم وانتزع رمحي فلا مطمع لكم فيه فانصرف القوم فقال دريد في ذلك:

ما ان رأيت ولا سمعت بمثلته	حامى الظعينة فارساً لم يقتل
أردى فارس لم يكونوا نخزة	ثم استمر كأتفه ليم يفعل
فتهللت تبعدو أسيرة وجهه	مثل الحسام جلته كف الصيقل
يزجى طعنته ويسحب رمحه	مثل البغاث خشين وقع الجنيدل

(١) جاء في تنقيح المقال ٢ / ١٢٨ أنه تحدث للعباس ستة عشر لقباً.

آثار البطولة والشجاعة، ووصفه الرواة بأنه كان وسيماً جميلاً، يركب الفرس المطهم^(١) ورجلاه
يخطان في الأرض^(٢).

تعويذ أمّ البنين له:

واستوعب حب العباس قلب أمّه الزكيّة، فكان عندها أعزّ من الحياة، وكانت تخاف
عليه، وتخشى من أعين الحساد من أن تصيبه بأذى أو مكروه، وكانت تعوده بالله، وتقول
هذه الأبيات:

أعيذُ نذهُ بالواحد من عين كلّ حاسد
قائمهم والقاعد سلمهم والجاحد
صادرهم والوارد ولدهم والوالد^(٣)

مع أبيه:

كان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يرعى ولده أبا الفضل في طفولته، ويعنى به كأشدّ ما تكون
العناية فأفاض عليه مكوّنات نفسه العظيمة العامرة بالإيمان والمثل العليا، وقد توسّم فيه أنه
سيكون بطلاً من أبطال الإسلام، وسيسجّل للمسلمين صفحات مشرقة من العزّة والكرامة.
كان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يوسع العباس تقبيلاً، وقد احتلّ عواطفه وقلبه، ويقول
المؤرّخون: إنّه أجلسه في حجره فشمر العباس عن

(١) الفرس المطهم: هو السمّين الفاحش في السمّن كما في القاموس وفي المنجد أنه التام الحسن.

(٢) مقاتل الطالبين: ٥٦.

(٣) المنق في أخبار قريش: ٤٣٧.

ساعديه، فجعل الإمام يقبلهما، وهو غارق في البكاء، فبهرت أمّ البنين، وراحت تقول للإمام:

« ما يبكيك؟ »

فأجابها الإمام بصوت خافت حزين النبرات:

« نظرت إلى هذين الكفّين، وتذكّرت ما يجري عليهما .. »

وسارعت أمّ البنين بلهفة قائلة:

« ماذا يجري عليهما .. »

فأجابها الإمام بنبرات مليئة بالأسى والحزن قائلاً:

« إنّهما يقطعان من الزند .. »

وكانت هذه الكلمات كصاعقة على أمّ البنين، فقد ذاب قلبها، وسارعت وهي مذهولة قائلة:

« لماذا يقطعان .. »

وأخبرها الإمام عليه السلام بأنّهما إنّما يقطعان في نصرّة الإسلام والذبّ عن أخيه حامي شريعة الله ريانة رسول الله صلى الله عليه وآله، فأجهشت أمّ البنين في البكاء، وشاركتها من كان معها من النساء لوعتها وحزنها ^(١).

وخلدت أمّ البنين إلى الصبر، وحمدت الله تعالى في أن يكون ولدها فداءً لسبط رسول الله صلى الله عليه وآله وريحانته.

نشأته:

نشأ أبو الفضل العباس عليه السلام نشأةً سالحة كريمة، قلّما يظفر بها إنسان

(١) قمر بني هاشم ١: ١٩.

فقد نشأ في ظلال أبيه رائد العدالة الاجتماعية في الأرض، فغذاه بعلومه وتقواه، وأشاع في نفسه النزعات الشريفة، والعادات الطيبة ليكون مثلاً عنه، وانموذجاً لمثله، كما غرست أمه السيّدة فاطمة في نفسه، جميع صفات الفضيلة والكمال، وغدّته بحبّ الخالق العظيم فجعلته في أيام طفولته يتطلّع إلى مرضاته وطاعته، وظلّ ذلك ملازماً له طوال حياته.

ولازم أبو الفضل أخويه السبطين ربحانتي رسول الله ﷺ الحسن والحسين سيّدي شباب أهل الجنّة فكان يتلقّى منهما قواعد الفضيلة، وأسس الآداب الرفيعة، وقد لازم بصورة خاصة أخاه أبا الشهداء الإمام الحسين عليه السلام فكان لا يفارقه في حله وترحاله، وقد تأثر بسلوكة، وانطبعت في قرارة نفسه مثله الكريمة وسجاياه الحميدة حتى صار صورة صادقة عنه يحكيه في مثله واتجاهاته، وقد أخلص له الإمام الحسين كأعظم ما يكون الإخلاص وقدمه على جميع أهل بيته لما رأى منه من الودّ الصادق له حتى فداه بنفسه.

إنّ المكونات التربوية الصالحة التي ظفر بها سيّدنا أبو الفضل العباس عليه السلام قد رفعتة إلى مستوى العظماء والمصلحين الذين غيروا مجرى تاريخ البشرية بما قدّموه لها من التضحيات الهائلة في سبيل قضاياها المصيرية، وانقاذها من ظلمات الذلّ والعبودية.

لقد نشأ أبو الفضل على التضحية والفداء من أجل إعلاء كلمة الحقّ، ورفع رسالة الإسلام الهادفة إلى تحرير إرادة الإنسان، وبناء مجتمع أفضل تسوده العدالة والمحبة، والإيثار، وقد تأثر العباس بهذه المبادئ العظيمة وناضل في سبيلها كأشدّ ما يكون النضال، فقد غرسها في أعماق نفسه، ودخائل ذاته، أبوه الإمام أمير المؤمنين وأخواه الحسن والحسين عليه السلام،

هؤلاء العظام الذين حملوا مشعل الحرية والكرامة، وفتحوا الآفاق المشرقة لجميع شعوب العالم
وأأمم الأرض من أجل كرامتهم وحرّيتهم، ومن أجل أن تسود العدالة والقيم الكريمة بين
الناس.

* * *

انطباعات عن شخصيته

واحتلّ أبو الفضل عليه السلام قلوب العظماء ومشاعرهم، وصار أنشودة الأحرار في كلّ زمان ومكان، وذلك لما قام به من عظيم التضحية تجاه أخيه سيّد الشهداء، الذي ثار في وجه الظلم والطغيان، وبنى للمسلمين عزّاً شامخاً، ومجداً خالداً.

وفيما يلي بعض الكلمات القيّمة التي أدلى بها بعض الشخصيات الرفيعة في حقّ أبي الفضل عليه السلام.

١ . الإمام زين العابدين:

أمّا الإمام زين العابدين فهو من المؤسسين للتقوى والفضيلة في الإسلام، وكان هذا الإمام العظيم يترحم . دوماً . على عمّه العباس ويذكر بمزيد من الإجلال والإكبار تضحياته الهائلة لأخيه الحسين وكان مما قاله في حقّه هذه الكلمات القيّمة:

رحم الله عمّي العباس، فلقد آثر وأبلى، وفدى أخاه بنفسه، حتى قُطعت يداه، فأبدله الله بجناحين، يطير بهما مع الملائكة في الجنّة، كما جعل لجعفر بن أبي طالب، وان للعبّاس عند الله تبارك وتعالى منزلة يغطه عليها جميع الشهداء يوم القيامة .. «^(١).

وألمت هذه الكلمات بأبرز ما قام به أبو الفضل من التضحيات تجاه

(١) الخصال ١: ٣٥.

أخيه أبي الأحرار الإمام الحسين عليه السلام، فقد أبدى في سبيله من ضروب الإيثار وصنوف التضحية ما يفوق حدّ الوصف، وما كان به مضرب المثل على امتداد التاريخ، فقد قطعت يده الكريمتان يوم الطفّ في سبيله، وظلّ يقاوم عنه حتى هوى إلى الأرض صريعاً، وإن لهذه التضحيات الهائلة عند الله منزلة كريمة، فقد منحه من الثواب العظيم، والأجر الجزيل ما يغطه عليه جميع شهداء الحقّ والفضيلة في دنيا الإسلام وغيره.

٢ . الإمام الصادق:

أمّا الإمام الصادق عليه السلام فهو العقل المبدع والمفكّر في الإسلام فقد كان هذا العملاق العظيم يشيد دوماً بعمّه العباس، ويثني ثناءً عاطراً وندياً على موافقه البطولية يوم الطفّ، وكان مما قاله في حقّه:

« كان عمّي العباس بن علي عليه السلام نافذ البصيرة، صُلب الإيمان، جاهد مع أخيه الحسين، وأبلى بلاءً حسناً، ومضى شهيداً .. » ^(١).

وتحدّث الإمام الصادق عليه السلام عن أنبل الصفات الماثلة عند عمّه العباس والتي كانت موضع إعجابه وهي:

أ . نفاذ البصيرة:

أمّا نفاذ البصيرة، فإنها منبعثة من سداد الرأي، وأصالة الفكر، ولا يتّصف بها إلا من صفت ذاته، وخلصت سريرته، ولم يكن لدواعي الهوى والغرور أي سلطان عليه، وكانت هذه الصفة الكريمة من أبرز صفات أبي الفضل فقد كان من نفاذ بصيرته، وعمق تفكيره مناصرته ومتابعته لإمام

(١) ذخيرة الدارين: ١٢٣ نقلاً عن عمدة الطالب.

الهدى وسيّد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام ، وقد ارتقى بذلك إلى قمة الشرف والمجد، وخلدت نفسه العظيمة على امتداد التاريخ، فما دامت القيم الإنسانية يخضع لها الإنسان، ويمجّدها فأبو الفضل قد بلغ قمّتها وذروتها.

ب . الصلابة في الإيمان:

والظاهرة الأخرى من صفات أبي الفضل عليه السلام هي الصلابة في الإيمان وكان من صلابة إيمانه انطلاقه في ساحات الجهاد بين يدي ریحانة رسول الله مبتغياً في ذلك الأجر عند الله، ولم يندفع إلى تضحيته بأي دافع من الدوافع المادية، كما أعلن ذلك في رجزه يوم الطفّ، وكان ذلك من أوثق الأدلة على إيمانه.

ج . الجهاد مع الحسين:

وثمة مكّمة وفضيلة أخرى لبطل كربلاء العباس عليه السلام أشاد بها الإمام الصادق عليه السلام وهي جهاده المشرق بين يدي سبط رسول الله صلى الله عليه وآله ، وسيّد شباب أهل الجنّة، ويعتبر الجهاد في سبيله من أسمى مراتب الفضيلة التي انتهى إليها أبو الفضل، وقد أبلى بلاءً حسناً يوم الطفّ لم يشاهد مثله في دنيا البطولات.

د . زيارة الإمام الصادق:

وزار الإمام الصادق عليه السلام أرض الشهادة والفداء كربلاء، وبعدهما انتهى من زيارة الإمام الحسين وأهل بيته والمجتبين من أصحابه، انطلق بشوق إلى زيارة قبر عمّه العباس، ووقف على المرقد المعظم، وزاره بالزيارة

التالية التي تنم عن سمو منزلة العباس، وعظيم مكانته، وقد استهلّ زيارته بقوله:
سلام الله، وسلام ملائكته المقرّبين، وأنبيائه المرسلين، وعباده الصالحين، وجميع الشهداء
والصديقين والزكيات الطيبات فيما تغتدي وتروح عليك يا ابن أمير المؤمنين .. » .
لقد استقبل الإمام الصادق عمّه العباس بهذه الكلمات الحافلة بجميع معاني الإجلال
والتعظيم، فقد رفع له تحيات من الله وسلام ملائكته، وأنبيائه المرسلين، وعباده الصالحين،
والشهداء، والصديقين، وهي أمدى وأزكى تحية رفعت له، ويمضي سليل النبوة الإمام الصادق
عليه السلام في زيارته قائلاً:
وأشهد لك بالتسليم، والتصديق، والوفاء، والنصيحة لخلف النبي المرسل، والسبط المنتجب،
والدليل العالم، والوصي المبلغ والمظلوم المهتضم .. »
وأضفى الإمام الصادق عليه السلام بهذا المقطع أوسمة رفيعة على عمّه العباس هي من أجلّ
وأسمى الأوسمة التي تضافى على الشهداء العظام، وهي:
أ . التسليم:

وسلم العباس عليه السلام لأخيه سيّد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام جميع أموره، وتابعه في جميع
قضاياها حتى استشهد في سبيله، وذلك لعلمه بإمامته القائمة على الإيمان الوثيق بالله تعالى،
وعلى أصالة الرأي وسلامة القصد، والإخلاص في النية.

ب . التصديق:

وصدّق العباس عليه السلام أخاه ریحانة رسول الله صلى الله عليه وآله في جميع اتجاهاته، ولم يخامرهُ شكٌّ في عدالة قضيتِهِ، وأنّه على الحق، وان من نصب له العداوة وناجزه الحرب كان على ضلال مبین .

ج . الوفاء:

من الصفات الكريمة التي أضافها الإمام الصادق عليه السلام على عمّه أبي الفضل عليه السلام، الوفاء، فقد وفى ما عاهد عليه الله من نصره إمام الحق أخيه أبي عبد الله الحسين عليه السلام، فقد وقف إلى جانبه في أحلك الظروف وأشدّها محنة وقسوة، ولم يفارقه حتى قطعت يداه، واستشهد في سبيله .

لقد كان الوفاء الذي هو من أميز الصفات الرفيعة عنصراً من عناصر أبي الفضل وذاتياً من ذاتياته، فقد خُلِقَ للوفاء والبرّ للقريب والبعيد .

د . النصيحة:

وشهد الإمام الصادق بنصيحة عمّه العباس لأخيه سيّد الشهداء عليه السلام، فقد أخلص له في النصيحة على مقارعة الباطل، ومناجزة أئمة الكفر والضلال، وشاركه في توضحياته الهائلة التي لم يشاهد العالم مثلها نظيراً في جميع فترات التاريخ ... ولننظر إلى بند آخر من بنود هذه الزيارة الكريمة، يقول عليه السلام:

« فجزاك الله عن رسوله، وعن أمير المؤمنين، وعن الحسن والحسين صلوات الله عليهم أفضل الجزاء بما صبرت، واحتسبت، وأعنت فنعم عقبى الدار ... » .

وحوى هذا المقطع على إكبار الإمام الصادق عليه السلام لعمّه العباس وذلك لما قدّمه من الخدمات العظيمة، والتوضيحات الهائلة لسيّد شباب أهل

الجنة، وريحانة رسول الله ﷺ الإمام الحسين عليه السلام فقد فداه بروحه، ووقاه بمهجته، وصبر على ما لاقاه في سبيله من المحن والشدائد مبتغياً في ذلك الأجر عند الله، فجزاه الله عن نبيه الرسول الأعظم ﷺ وعن باب مدينته الإمام أمير المؤمنين، وعن الحسن والحسين أفضل الجزاء على عظيم تضحياته.

ويستمرّ مجدّد الإسلام الإمام الصادق عليه السلام في زيارته لعمّه العباس، فيذكر صفاته الكريمة، وما له من المنزلة العظيمة عند الله تعالى، فيقول بعد السلام عليه:

« أشهد، وأشهد الله أنك مضيت على ما مضى به البديون والمجاهدون في سبيل الله، المناصحون له في جهاد أعدائه، المبالغون في نصره أوليائه، الذابون عن أحبائه، فجزاك الله أفضل الجزاء وأوفى الجزاء، وأوفى جزاء أحد ممن وفي ببيعته، واستجاب لدعوته، وأطاع ولاة أمره ... »

لقد شهد الإمام الصادق العقل المفكّر والمبدع في الإسلام، وأشهد الله تعالى على ما يقول: من أنّ عمّه أبا الفضل العباس عليه السلام قد مضى في جهاده مع أخيه أبي الأحرار الإمام الحسين عليه السلام، على الخطّ الذي مضى عليه شهداء بدر الذين هم من أكرم الشهداء عند الله فهم الذين كتبوا النصر للإسلام، وبدمائهم الزكية ارتفعت كلمة الله عالية في الأرض وقد استشهدوا وهم على بصيرة من أمرهم، ويقين من عدالة قضيتهم، وكذلك سار أبو الفضل العباس على هذا الخطّ المشرق، فقد استشهد لإنقاذ الإسلام من محتته الحازنة، فقد حاول صعلوك بني أمية حفيد أبي سفيان أن يمحو كلمة الله، ويلف لواء الإسلام، ويعيد الناس لجاهليتهم الأولى، فتار أبو الفضل

بقيادة أخيه أبي الأحرار في وجه الطاغية السقّاك، وتحققت بثورتهم كلمة الله العليا في نصر الإسلام وإنزال الهزيمة الساحقة بأعدائه وخصومه.

ويستمرّ الإمام الصادق عليه السلام في زيارته لعمّه العباس فيسجّل ما يحمله من إكبار وتعظيم، فيقول:

« أشهد أنّك قد بلغت في النصيحة، وأعطيت غاية المجهود فبعثك الله في الشهداء، وجعل روحك مع أرواح السعداء، وأعطاك من جنانه أفسحها منزلاً، وأفضلها غزواً، ورفع ذكرك في عليين وحشرك مع النبيين، والصديقين والشهداء، والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً. أشهد أنّك لم تهن ولم تنكل، وأنك مضيت على بصيرة من أمرك، مقتدياً بالصالحين، ومتبعاً للنبيين، فجمع الله بيننا، وبينك وبين رسوله وأوليائه في منازل المحبتين، فإنه أرحم الراحمين .. »^(١)

ويلمس في هذه البنود الأخيرة من الزيارة مدى أهميّة العباس، وسموّ مكانته عند إمام الهدي الإمام الصادق عليه السلام، وذلك لما قام به هذا البطل العظيم من خالص النصيحة، وعظيم التضحيّة لريحانة رسول الله صلّى الله عليه وآله الإمام الحسين عليه السلام، كما دعا الإمام له ببلوغ المنزلة السامية عند الله التي لا يناها إلا الأنبياء، واوصيائهم، ومن أمتحن الله قلبه للإيمان.

٣ . الإمام الحجّة:

وأدلى الإمام المصلح العظيم بقية الله في الأرض قائم آل محمد صلّى الله عليه وآله

(١) مفاتيح الجنان للقمي وغيره من كتب الزيارات والأدعية.

بكلمة رائعة في حق عمّ العباس عليه السلام جاء فيها:

« السلام على أبي الفضل العباس ابن أمير المؤمنين، المواسي أخاه بنفسه، الآخذ لغده من أمسه، الفادي له، الواقى، الساعي إليه بمائه، المقطوعة يداه، لعن الله قاتليه يزيد بن الرقاد، وحكيم بن الطفيل الطائي .. » ^(١).

وأشاد بقيّة الله في الأرض بالصفات الكريمة الماثلة في عمّ قمر بني هاشم وفخر عدنان، وهي:

١ - مواساته لأخيه سيّد الشهداء عليه السلام، فقد واساه في أحلك الظروف، وأشدّها محنة وقسوة، وظلّت مواساته له مضرب المثل على امتداد التاريخ.

٢ - تقديمه أفضل الزاد لآخرته، وذلك بتقواه، وشدّة تحرّجه في الدين، ونصرته لإمام الهدى.

٣ - تقديم نفسه، واخوته، وولده فداءً لسيّد شباب أهل الجنة الإمام الحسين عليه السلام.

٤ - وقايته لأخيه المظلوم بمهجته.

٥ - سعيه لأخيه وأهل بيته بالماء حينما فرضت سلطات البغي والجور الحصار على ماء الفرات من أن تصل قطرة منه لآل النبي صلى الله عليه وآله.

٤ . الشعراء:

وهام الأحرار من شعراء أهل البيت: بشخصية أبي الفضل التي

(١) مزار محمد بن المشهدي من أعلام القرن السادس: ٥٥٣.

بلغت قمة الشرف والمجد، وسجلت صفحات من النور في تاريخ الأمة الإسلامية، وقد نظموا في حقه روائع الشعر العربي إكباراً وإعجاباً بمثله الكريمة، فيما يلي بعضهم.

١ . الكُميت:

أما شاعر الإسلام الأكبر الكُميت الأسدي فقد انطبع حبّ أبي الفضل في أعماق نفسه، وقد تعرّض لمدحه في إحدى هاشمياته الخالدة قال:

وأبو الفضل إنّ ذكرهم الحلو شفاء النفوس من اسقام^(١)
إنّ ذكر أبي الفضل العباس عليه السلام، وسائر أهل البيت: حلو عند كل شريف لأنّه ذكر للفضيلة والكمال المطلق، كما أنّه شفاء للنفوس من أسقام الجهل والغرور، وسائر الأمراض النفسية.

٢ . الفضل بن محمد:

من الشعراء الملهمين الذين هاموا بشخصية أبي الفضل عليه السلام هو حفيده الشاعر الكبير الفضل بن محمد بن الفضل بن الحسن بن عبيدالله بن العباس فقد قال:

إني لأذكر للعبّاس موقفه بكرّ بلاء وهام القوم يختطف
يحمي الحسين ويحميه على ظمأ ولا يولّي ولا يشني فيختلف
ولا أرى مشهداً يوماً كمشهده مع الحسين عليه الفضل والشرف

(١) الهاشميات: ٢٥، ومن الغريب أن الشارح لهذا الديوان قال: ان المراد بأبي الفضل هو العباس بن عبد المطلب.

أكرم به مشهداً بانته فضيلته وما أضع له أفعاله خلف^(١)
وصوّرت هذه الأبيات شجاعة أبي الفضل عليه السلام وما قام به من دور مشرق يدعو إلى
الاعتزاز والفخر في حماية أخيه أبي الأحرار، ووقايته له بمهجته، وسقايته له ولأفراد عائلته
وأطفاله بالماء، فلم يكن هناك مشهد أفضل ولا أسمى من هذا الموقف الرائع الذي وقفه أبو
الفضل مع أخيه أبي عبد الله عليه السلام... وقد استولت مواقف أبي الفضل على حفيده الفضل
فهام بما ورثاه بذوب روحه، وكان من رثائه له هذه الأبيات الرقيقة:

أحق الناس أن ييكي عليه فتى أبكى الحسين بكريلاء
أحواه وابن والده علي أبو الفضل المضرج بالدماء
ومن واساه لا يثنيه شيء وجادلته على عطش بماء^(٢)
نعم ان أحق الناس أن يمجّد ويكي على ما حلّ به من رزء قاصم هو أبو الفضل رمز
الإباء والفضيلة، فقد رزأ الإمام الحسين عليه السلام بمصرعه، وبكاه أمرّ البكاء لأنّه فقد بمصرعه أبرّ
الإخوان، وأعطفهم عليه.

٣ . السيّد راضي القزويني:

وهام الشاعر العلوي السيّد راضي القزويني بشخصية أبي الفضل عليه السلام قال:
أبا الفضل يا من أسس الفضل والإبا أبي الفضل إلا أن تكون له أبا

(١) قمر بني هاشم: ١٤٧ نقلًا عن المجددي.

(٢) الغدير ٣: ٥.

تطلبت أسباب العلى فبلغتها وما كل ساع بالغ ما تطلبا
ودون احتمال الضيم عزّ ومنعة تخيرت أطراف الأسنّة مركبا
انّ أبا الفضل من المؤسسين للفضل والإباء في دنيا العرب والإسلام فقد سما إلى طرق
المجد، وأسباب العلى، فبلغ قمتها، وقد تخير أطراف الأسنّة والرماح حتى لا يناله ذلّ، ولا
ضيم.

٤ . محمد رضا الأزري:

وأشاد الشاعر الكبير الحاج محمد رضا الأزري في رائعته بالمثل الكريمة التي تحلّى بها قمر
بني هاشم، والتي احتلت عواطف الأحرار ومشاعرهم يقول:
فأنهض الى الذكر الجميل مشمراً فالذكر أبقى ما اقتنته كرامها
أو ما أتاك حديث وقعة كربلا اتى وقد بلغ السماء قتامها
يوم أبو الفضل استجار به الهدى والشمس من كدر العجاج لثامها
ودعا الأزري بالبيت من رائعته إلى اقتناء الذكر الجميل الذي هو من أفضل المكاسب التي
يظفر بها الإنسان فانه أبقى، وأخلد له، ودعا بالبيت الثاني إلى التأمل والاستفادة من واقعة
كربلاء التي تفجّرت من بركان هائل من الفضائل والمآثر لآل النبي ﷺ، وعرج بالبيت
الثالث على أبي الفضل العباس عليه السلام الذي استجار به سبط النبي ﷺ، وريحانته، ولنستمع
إلى ما قام به العباس من النصر والحماية لأخيه، يقول الأزري:
فحمى عربنته ودمدم دونها ويذب من دون الشرى ضرغامها

والبيض فوق البيض تحسب وقعها زحل الرعود إذا كفهّر غمامها
من باسل يلقى الكتيبة باسماء والشوس يرشح بالمنية هامها
واشم لا يحتل دار هضيمة أو يستقلّ على النجوم رغامها
أو لم تكن تدري قريش أنّه طلاع كل ثنية مقدامها

وهذه الأبيات منسجمة كل الانسجام مع بطولات أبي الفضل، فقد صوّرت بسالته، وما قام به من دور مشرف في حماية أخيه أبي الأحرار فقد انبرى كالأسد يذبّ عن أخيه في معركة الشرف والكرامة، غير حافل بتلك الوحوش الكاسرة التي ملأت البيداء دفاعاً عن ذئاب البشرية، وقد انطلق أبو الفضل باسماء في ميادين الحرب وهو يحطّم أنوف أولئك الأوغاد ويجرّعهم غصص الموت في سبيل كرامته وعزّة أخيه، وقد استبان للقبائل القرشية في هذه المعركة ان أبا الفضل طلاع كل ثنية، وانه ابن من أرغمها على الإسلام وحطّم جاهليتها وأوثانها.

وبهذا العرض نأتي على الانطباعات الكريمة عن شخصية أبي الفضل عليه السلام عند الأئمة الطاهرين عليهم السلام، وعند بعض أعلام الأدب العربي.

* * *

عناصره النفسية

كان سيّدنا العباس عليه السلام دنيا من الفضائل والمآثر، فما من صفة كريمة أو نزعة رفيعة إلا وهي من عناصره وذاتيّاته، وحسبه فخراً أنّه نجل الإمام أمير المؤمنين الذي حوى جميع فضائل الدنيا، وقد ورث أبو الفضل فضائل أبيه وخصائصه، حتى صار عند المسلمين رمزاً لكل فضيلة، وعنواناً لجميع القيم الرفيعة، ونلمح . يياجاز . لبعض صفاته.

١ . الشجاعة:

أما الشجاعة فهي من أسمى صفات الرجولة لأنها تنمّ عن قوة الشخصية وصلابتها، وتماسكها أمام الأحداث، وقد ورث أبو الفضل هذه الصفة الكريمة من أبيه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام الذي هو أشجع إنسان في دنيا الوجود، كما ورث هذه الصفة من أخواله الذين تميّزوا بهذه الظاهرة، وعرفوا بها من بين سائر الأحياء العربية.

لقد كان أبو الفضل دنيا في البطولات، فلم يخالج قلبه خوف ولا رعب في الحروب التي خاضها مع أبيه كما يقول بعض المؤرخين، وقد أبدى من الشجاعة يوم الطف ما صار مضرب المثل على امتداد التاريخ، فقد كان ذلك اليوم من أعظم الملاحم التي جرت في الإسلام، وقد برز فيه أبو الفضل أمام تلك القوى التي ملأت البيداء فجبرّ الشجعان وأرعب قلوب

عامّة الجيش، فزلزلت الأرض تحت أقدامهم وخيّم عليهم الموت، وراحوا يمتّون به بإعطاء القيادة العامّة إن تخلّى عن مساندة أخيه، فهزأ منهم العباس، وزاده ذلك تصلّباً في الدفاع عن عقيدته ومبادئه.

إن شجاعة أبي الفضل عليه السلام، وما أبداه من البسالة يوم الطفّ لم تكن من أجل مغنم مادي من هذه الحياة، وأما كانت دفاعاً عن أقدس المبادئ الماثلة في نهضة أخيه سيّد الشهداء المدافع الأوّل عن حقوق المظلومين والمضطهدين.

مع الشعراء:

وبهر شعراء الإسلام بشجاعة أبي الفضل، وقوّة بأسه وما ألحقه بالجيش الأموي من الهزيمة الساحقة، وفيما يلي بعض الشعراء الذين هاموا بشخصيته.

١. السيّد جعفر الحلّي:

ووصف الشاعر العلوي السيّد جعفر الحلّي في رائعته ما مئني به الجيش الأموي من الرعب والفرع من أبي الفضل عليه السلام يقول:

وقع العذاب على جيوش أميّة	من باسل هو في الوقائع معلم
ما راعهم إلاّ تقحم ضيغم	غيران يعجم لفظه ويدمدم
عبست وجوه القوم خوف الموت	والعبّاس فيهم ضاحك يتبسّم
قلب اليمين على الشمال وغاص في	الأوساط يحصد للرؤوس ويحطم
ما كرّ ذو بأس له متقدماً	إلاّ وفرّ وأرأسه المتقدّم
صبغ الخيول برمحه حتى غدا	سيان أشقر لوّنها والأدهم

ما شدّ غضباناً على ملمومه إلا وحلّ بها البلاء المبرم
وليه إلى الاقدام نزعته هارب فكأتمها هو بالتقدم يسلم
بطل تورث من أيه شجاعة فيها أنوف بني الضلالة ترغم
أرأيتم هذا الوصف الرائع لبسالة أبي الفضل وقوة بأسه وشجاعته النادرة.

أرأيتم كيف وصف الحلّي ما حلّ بالجيش الأموي من الجبن الشامل، والهزيمة الساحقة
حينما برز إليهم قمر بني هاشم وبطل الإسلام فأنزل بهم العذاب الأليم، وترك صفوفهم تموج
من الخوف والرعب، وكان العباس متبسّماً مثلوج الفؤاد مما ينزل بهم من الخسائر الفادحة،
فقد ملأ ساحات المعركة بجثث قتلاهم، وصيغ خيولهم بدمائهم، وفيما أحسب أنه لم
توصف البسالة والشجاعة بمثل هذا الوصف الرائع الدقيق، والذي لا مبالغة فيه حسبما
تحدّث الرواة عمّا أنزله العباس عليه السلام بأهل الكوفة من الخسائر الجسيمة.

ويستمرّ السيد الحلّي في وصف شجاعة أبي الفضل فيقول:

بطل إذا ركب المطهّم خلّته جبلاً أشمّ يخف فيه مطهّم
قسماً بصارمه الصقيل وانني في غير صاعقة السماء لا أقسم
لولا القضاء لخوا الوجود بسيفه والله يقضي ما يشاء ويحكم
لقد كان سيف أبي الفضل صاعقة مدمّرة قد حلّت بأهل الكوفة، ولولا قضاء الله لأتى
العبّاس على الجيش، ومحاهم من ساحة الوجود.

٢ . الإمام كاشف الغطاء:

وبهر الإمام محمد الحسين كاشف الغطاء عليه السلام بشجاعة أبي الفضل

فقال في قصيدته العصماء:

وتعبس من خوف وجوه أمية اذا كثر عباس الوغى يتبسّم
علم بتأويل المنية سيفه تنزل على من بالكريهة معلم
وان عاد ليل الحرب بالنقع أليلاً فيوم عداه منه بالشرا أيوم
لقد عبست وجوه الجيش الأموي رعباً وخوفاً من أبي الفضل الذي حصد رؤوس أبطالهم،
وحطّم معنوياتهم، وأذاقهم وإبلاً من العذاب الأليم.

٣ . الفرطوسي:

وعرض شاعر أهل البيت عليه السلام الشيخ عبد المنعم الفرطوسي نصر الله مشواه في ملحمته
الخالدة إلى شجاعة أبي الفضل وبسالته في ميدان الحرب قال:
علم للجهاد في كل زحف علم في الثبات عند اللقاء
قد نما فيه كل بأس وعزّ من عليّ بنجدة وإباء
هو ثبت الجنان في كل روع وهو روع الجنان من كل راء
وأضاف الفرطوسي مصوراً ما أنزله أبو الفضل من الخسائر الفادحة في جيوش الأمويين
قال:

فارتقى صهوة الجواد مطالاً علماً فوق قلعة شماء
وتجلى والحرب ليل قثام قمرراً في غياهب الظلماء
فاستطارت من الكمأة قلوب أفرغت من ضلوعها كالهواء
وتهاوت جسومهم وهي صرعى واستطارت رؤوسهم كالهباء

وهو يرمي الكتائب السود رجماً بالمنايا من اليد البيضاء^(١)
إن شجاعة أبي الفضل قد أدهشت أفذاذ الشعراء، وصارت مضرب المثل على امتداد
التاريخ، ومما زاد في أهميتها أنّها كانت لنصرة الحق والذبّ عن المثل والمبادئ التي جاء بها
الإسلام، وانها لم تكن بأي حال من أجل مغنم مادي من مغنم هذه الحياة.

٢ . الإيمان بالله:

أما قوّة الإيمان بالله، وصلابته فانها من أبرز العناصر في شخصية أبي الفضل عليه السلام، ومن
أوليات صفاته، فقد ترقّى في حجور الإيمان ومراكز التقوى، ومعاهد الطاعة والعبادة لله
تعالى، فقد غداه أبوه زعيم الموحّدين، وسيد المتّقين بجوهر الإيمان، وواقع التوحيد، لقد غداه
بالإيمان الناشئ عن الوعي، والتدبّر في حقائق الكون، وأسرار الطبيعة، ذلك الإيمان الذي
اعلنه الإمام عليه السلام بقوله: « لو كشف لي الغطاء ما ازدت يقيناً » وقد تفاعل هذا الإيمان
العميق في أعماق قلب أبي الفضل وفي دخائل ذاته حتى صار من عمالقة المتّقين والموحّدين،
وكان من عظيم إيمانه الذي لا يحد أنّه قدم نفسه واخوته وبعض أبنائه قرابين خالصة لوجه
الله تعالى.

لقد جاهد العباس ببسالة دفاعاً عن دين الله، وحماية لمبادئ الإسلام التي تعرّضت للخطر
الملاحق أيام الحكم الأموي، ولم ييغ بذلك إلا وجه الله والدار الآخرة.

(١) ملحمة أهل البيت ٣: ٣٢٩ - ٣٣٠.

٣ . الإباء:

وصفة أخرى من أسمى صفات أبي الفضل عليه السلام، وهي الإباء وعزّة النفس فقد أبي أن يعيش ذليلاً في ظلّ الحكم الأموي الذي اتخذ مال الله دولاً، وعباد الله حولاً، فاندفع إلى ساحات الجهاد كما اندفع أخوه أبو الأحرار الذي رفع شعار العزّة والكرامة، وأعلن أن الموت تحت ظلال الأسنّة سعادة، والحياة مع الظالمين برماً.

لقد مثّل أبو الفضل عليه السلام يوم الطفّ الإباء بجميع رحابه ومفاهيمه فقد منّاه الأمويون بإمارة الجيش، وإسناد القيادة العامة له أن تخلّى عن أخيه سيّد شباب أهل الجتّة، فهزأ منهم وجعل إمارة جيشهم تحت حدائه، واندفع بشوق وإخلاص إلى ميادين الحرب يجندل الأبطال ويحصد الرؤوس دفاعاً عن حرّيته ودينه وكرامته.

٤ . الصبر:

ومن خصائص أبي الفضل عليه السلام ومميّزاته الصبر على محن الزمان، ونوائب الدهر، فقد ألمت به يوم الطف من المصائب والمحن التي تذوب من هولها الجبال، فلم يجزع، ولم يفه بأيّ كلمة تدلّ على سخطه، وعدم رضاه بما جرى عليه وعلى أهل بيته، وأتمّ سلّم أمره إلى الخالق العظيم، مقتدياً بأخيه سيّد الشهداء عليه السلام الذي لو وزن صبره بالجبال الرواسي لرجح عليها.

لقد رأى أبو الفضل الكواكب المشرقة، والممجدين الأوفياء من

أصحابه وهم مجزّرون كالأضاحي في رمضاء كربلاء تصهرهم الشمس، وسمع عويل الأطفال، وهم ينادون العطش العطش، وسمع صراخ عقائل الوحي، وهنّ يندبن قتلاهنّ، ورأى وحدة أخيه سيّد الشهداء، وقد أحاط به أنذال أهل الكوفة ييغون قتله تقريباً لسيدهم ابن مرجانة، رأى أبو الفضل كل هذه الشدائد الجسام فلم يجزع وسلّم أمره إلى الله تعالى، مبتغياً الأجر من عنده.

٥ . الوفاء:

ومن خصائص أبي الفضل عليه السلام الوفاء الذي هو من أنبل الصفات وأميزها، فقد ضرب الرقم القياسي في هذه الصفة الكريمة وبلغ أسمى حدّها، وكان من سمات وفائه ما يلي:

أ . الوفاء لدينه:

وكان أبو الفضل العباس عليه السلام من أوفى الناس لدينه، ومن أشدّهم دفاعاً عنه، فحينما تعرّض الإسلام للخطر الماحق من قبل الطغمة الأموية الذين تنكّروا كأشدّ ما يكون التنكّر للإسلام، وحاربوه في غلس الليل وفي وضح النهار، فانطلق أبو الفضل إلى ساحات الوغى فجاهد في سبيله جهاد المنيبين والمخلصين لترتفع كلمة الله عالية في الأرض، وقد قطعت يداه، وهوى إلى الأرض صريعاً في سبيل مبادئه الدينية.

ب . الوفاء لأُمَّته:

رأى سيّدنا العباس عليه السلام الأُمَّة الإسلامية ترزح تحت كابوس مظلم من الذلّ والعبودية قد تحكّمت في مصيرها عصابة مجرّمة من الأمويين فنهبت

ثرواتها، وتلاعبت في مقدراتها، وكان أحد أعمدتهم السياسية يعلن بلا حياء ولا خجل قائلاً:
(إنما السواد بستان قريش) فأى استهانة بالأمة مثل هذه الاستهانة، ورأى أبو الفضل عليه السلام
أن من الوفاء لأمته أن يهَبَ لتحريرها وإنقاذها من واقعها المرير، فانبرى مع أخيه أبي الأحرار
والكوكبة المشرقة من فتیان أهل البيت:، ومعهم الأحرار المجحدون من أصحابهم، فرفعوا
شعار التحرير، وأعلنوا الجهاد المقدس من أجل إنقاذ المسلمين من الذلّ والعبودية، وإعادة
الحياة الحرّة الكريمة لهم، حتى استشهدوا من أجل هذا الهدف السامي النبيل، فأى وفاء للأمة
يضارع مثل هذا الوفاء؟

ج . الوفاء لوطنه:

وغمرت الوطن الإسلامي محن شاقّة وعسيرة أيام الحكم الأموي، فقد استقلاله وكرامته،
وصار بستاناً للأمويين وسائر القوى الرأسمالية من القرشيين وغيرهم من العملاء، وقد شاع
البؤس والحرمان، وذلّ فيه المصلحون والأحرار، ولم يكن فيه أي ظلّ لحرية الفكر والرأي،
فهَبَ العباس تحت قيادة أخيه سيّد الشهداء عليه السلام إلى مقاومة ذلك الحكم الأسود وتحطيم
أروقته وعروشته، وقد تمّ ذلك بعد حين بفضل تضحياتهم، فكان حقاً هذا هو الوفاء للوطن
الإسلامي.

د . الوفاء لأخيه:

ووفى أبو الفضل ما عاهد الله عليه من البيعة لأخيه رجحانة رسول الله صلى الله عليه وآله، والمنافع
الأول عن حقوق المظلومين والمضطهدين.
ولم يرَ الناس على امتداد التاريخ وفاءً مثل وفاء أبي الفضل لأخيه الإمام الحسين عليه السلام،
ومن المقطوع به أنه ليس في سجلّ الوفاء الانساني

أجمل ولا أنظر من ذلك الوفاء الذي أصبح قطباً جاذباً لكل إنسان حرّ شريف.

٦ . قوّة الإرادة:

أمّا قوّة الإرادة فإنّها من أميز صفات العظماء الخالدين الذين كُتِب لهم النجاح في أعمالهم إذ يستحيل أن يحقق من كان خائر الإرادة، وضعيف الهمّة أي هدف اجتماعي، أو يقوم بأي عمل سياسي.

لقد كان أبو الفضل عليه السلام من الطراز الأول في قوة بأسه، وصلابة إرادته، فانظّم إلى معسكر الحق، ولم يهن، ولم ينكل، وبرز على مسرح التاريخ كأعظم قائد فدّ، ولو لم يتّصف بهذه الظاهرة لما كتب له الفخر والخلود على امتداد الأيام.

٧ . الرأفة والرحمة:

وأترعت نفس أبي الفضل بالرأفة والرحمة على المحرومين، والمضطهدين وقد تجلّت هذه الظاهرة بأروع صورها في كربلاء حينما احتلّت جيوش الأمويين حوض الفرات لحرمان أهل البيت من الماء حتى يموتوا أو يستسلموا لهم، ولما رأى العباس عليه السلام أطفال أخيه، وسائر الصبية من أبناء اخوته، وقد ذبلت شفاهم، وتغيّرت ألوانهم من شدّة الظمّ ذاب قلبه حناناً وعطفاً عليهم، فاقتحم الفرات، وحمل الماء إليهم، وسقاهم، وفي اليوم العاشر من المحرم، سمع الأطفال ينادون العطش العطش، فتفتت كبده رحمة ورأفة عليهم، فأخذ القرية، والتحم مع أعداء

الله حتى كشفهم عن نهر الفرات، فغرف منه غرفة ليروي ظمأه فأبت رحمته أن يشرب قبل
أخيه وأطفاله، فرمى الماء من يده.
فتشوا في تاريخ الأمم والشعوب فهل تجدون مثل هذه الرأفة والرحمة، التي تحلّى بها قمر
بني هاشم وفخر عدنان.
هذه بعض عناصر أبي الفضل وصفاته، وقد ارتقى بها إلى قمة الجحد التي ارتقى إليها أبوه.

* * *

مع الأحداث

ورافق أبو الفضل العباس عليه السلام منذ نعومة أظفاره كثيراً من الأحداث الجسام التي لم تكن ساذجة، ولا سطحية، وإنما كانت عميقة كأشد ما يكون العمق، فقد أحدثت اضطراباً شاملاً في الحياة الفكرية والعقائدية بين المسلمين، كما استهدفت بصورة دقيقة إبعاد أهل البيت عليهم السلام عن المراكز السياسية في البلاد، واخضاعهم لرغبات السلطة، وما عمله على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي، من أعمال لا تتفق في كثير من بنودها مع التشريع الإسلامي، وقد تجلّى ذلك بوضوح أيام حكومة عثمان وما سلكته من التصرفات في المجالات الإدارية، فقد عمدت إلى منح مناصب الدولة، وسائر الوظائف العامة إلى بني أمية وآل معيط، وحرمان بني هاشم، ومن يتصل بهم من أبناء الصحابة من أي منصب من المناصب العامة، وقد استولى الأمويون على جميع أجهزة الدولة، وراحوا يعملون عامدين أو غير عامدين إلى خلق الأزمات الحادة بين المسلمين، ومن المقطوع به أنه لم تكن لأكثرهم أية نزعة إسلامية، كما لم تكن لهم أية دراية بأحكام القانون الإسلامي، وما تتطلب إليه الشريعة الإسلامية من إيجاد مجتمع إسلامي متطور قائم على المودة والتعاون وبعيد كل البعد عن التأخر.

لقد أشاعت حكومة عثمان الرأسمالية في البلاد، فقد منحت الأمويين وبعض أبناء القرشيين الامتيازات الخاصة، وفتحت لهم الطريق لكسب

الأموال، وتكديسها بغير وجه مشروع، وقد أدت هذه السياسة المتتوية إلى خلق اضطراب شامل لا في الحياة الاقتصادية فحسب، وإنما في جميع مناحي الحياة، وأشاعت القلق والتذمر في جميع الأوساط الإسلامية، فاتجهت قطعات من الجيوش المرابطة في العراق ومصر إلى يثرب، وطالبت عثمان بالاستقامة في سياسته، وإبعاد الأمويين عن جهاز الدولة، كما طالبوه بصورة خاصة بإبعاد مستشاره ووزيره مروان بن الحكم الذي كان يعمل بصورة مكشوفة لتأجيج نار الفتنة في البلاد.

ولم يستجب عثمان لمطالب الثوّار، ولم يخضع لرأي الناصحين له، والمشفقين عليه، وظلّ متمسكاً بأسرته، ومحتضناً لبطانته، تتوافد عليه الأخبار بانحرفهم عن الطريق القويم، واقترافهم لما حرّمه الله، فلم يعن بذلك، وراح يسدّدهم ويلتمس لهم المعاذير، ويتّهم الناصحين بالعداء لأسرته.

وبعدما اختفت جميع الوسائل الهادفة لاستقامة عثمان لم يجد الثوّار بُدّاً من قتله، فقَتَلَ شرّاً قتلة، ويقول المؤرّخون أنّه تولّى قتله خيار أبناء الصحابة كمحمد بن أبي بكر، كما أقرّ قتله كبار الصحابة وعظماؤهم، وفي طليعتهم الصحابي الجليل صاحب رسول الله ﷺ وخليته عمّار بن ياسر.

وانتهت بذلك حكومة عثمان وهي من أهمّ الأحداث الجسام التي جرت في عصر أبي الفضل ؑ وبمراى ومسمع منه، فقد كان في شرخ الشباب وعنفوانه وقد رأى كيف تذرّع الانتهازيون من الأمويين بمقتل عثمان فطَبّلوا له، ورفعوا قميصه الملطّخ بدمائه فجعلوه شعاراً لتمرّدهم على حكم الإمام أمير المؤمنين ؑ ذلك الحكم القائم على الحق والعدل. إنّ أسوأ ما تركت حكومة عثمان أنّها ألقت الفتنة بين المسلمين،

وحصرت الثروة عند الأمويين وآل أبي معيط، وعملائهم من القرشيين الحاقدين على العدل الاجتماعي، وبذلك استطاعوا القيام بعصيان مسلح ضد حكومة الامام أمير المؤمنين عليه السلام التي كانت امتداداً ذاتياً لحكومة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم. وعلى أي حال فلنترك حديث عثمان، ونتوجه إلى ذكر بقية الأحداث التي جرت في عصر أبي الفضل عليه السلام.

* * *

حكومة الامام

والشيء المؤكّد الذي لا خلاف فيه أنّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قد انتخب انتخاباً شاملاً من جميع قطعات الشعب، فقد سارعت القوات المسلحة التي أطاحت بحكومته إلى مبايعته كما بايعته الجماهير العامة في مختلف الأقاليم الإسلامية سوى الشام، ونفر قليل في يثرب كان من بينهم سعد بن أبي وقاص، وعبدالله بن عمر، وبعض الأمويين الذين أيقنوا أنّ الإمام عليه السلام ييسط العدالة الاجتماعية في الأرض، ويحقق المساواة الكاملة بين المسلمين فلا امتياز لأحد على أحد، وبذلك تفوت مصالحهم، فلم يبايعوه، ولم يقف الإمام معهم موقفاً معادياً فلم يوعز إلى السلطات القضائية والتنفيذية باتخاذ الإجراءات الحاسمة ضدّهم، وذلك عملاً بما منحه الإسلام من الحريّات العامة لجميع الناس، سواء كانوا من المؤيدين للدولة أو من المعارضين لها بشرط أن لا يحدثوا فساداً في الأرض، أو يقوموا بعصيان مسلّح ضدّ الدولة فإنّها تكون مضطّرة إلى اتخاذ الاجراءات القانونية ضدّهم.

وعلى أيّ حال فقد بويع الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بيعة عامة عن رضی واختيار من جميع أبناء الشعوب الإسلامية، وأظهروا في بيعته جميع مباحج الفرج والسرور، ولم يظفر بمثل هذه البيعة أحد من الخلفاء الذين سبقوه أو تأخّروا عنه.

وفور تقلّد الإمام عليه السلام للخلافة تبني بصورة إيجابية وشاملة العدل الخالص، والحق المحض، وتنكّر لكل مصلحة شخصية تعود بالنفع عليه

أو على ذويه، وقدم مصالح الفقراء والمحرومين على جميع المصالح الأخرى ... كانت سعادته أن يرى الأوساط الشعبية تنعم بالخير والسعادة، ولا مكان للحاجة والاعواز عندها، ولم يعرف في تاريخ هذا الشرق حاكم مثله في عطفه وحنانه على البؤساء والمحرومين.

ولا بد لنا من وقفة قصيرة للحديث عن بعض شؤون الحكم عند الإمام عليّ عليه السلام فإن ذلك يرتبط ارتباطاً وثيقاً بسيرة ولده أبي الفضل عليه السلام فإنه يكشف عن روعة التربية الكريمة التي تربي عليها في عهد أبيه رائد العدالة الاجتماعية في الأرض، والتي تركت في نفسه حبّ التضحية والفداء في سبيل الله، كما يكشف عن الأسباب الوثيقة التي دعت القوى الطامعة، والمنحرفة إلى الوقوف في وجه حكومة الإمام عليّ عليه السلام، ومناهضتهم لأبنائه من بعده، وفيما يلي ذلك:

منهج حكم الإمام:

أما منهج الحكم وفلسفته عند الإمام عليّ عليه السلام فقد كان مشرقاً وحافلاً بمقومات الارتقاء، والنهوض للشعوب الإسلامية، وفيما اعتقد أنه لم تعرف الإنسانية في جميع أدوارها نظاماً سياسياً تبني العدل الاجتماعي، والعدل الاقتصادي والسياسي مثل ما تبناه الإمام، وسنّه من المناهج الرائعة في هذه الحقول ونشير إلى بعضها:

١. بسط الحريّات:

وآمن الإمام عليّ عليه السلام بضرورة منح الحريّات العامة لجميع أبناء الأمة، وان ذلك من أولويّات حقوقها، والدولة مسؤولة عن توفيرها لكل فرد من أبناء

الشعب، وان حرمانهم منها يخلق في نفوسهم العقد النفسية، ويمنع من التقدّم الفكري، والتطوّر الاجتماعي في أبنائها، ويخلد لهم الخنوع والخمول، ويعود عليهم بالاضرار البالغة، أمّا مدى هذه الحرية وسعتها فهي:

أ . الحرية الدينية:

يرى الإمام عليّ أن الناس أحرار فيما يعتقدون ويذهبون من أفكار دينية، وليس للدولة أن تحول بينهم وبين عقائدهم كما أنه ليس لها أن تحول بينهم وبين طقوسهم الدينية، وأنهم غير ملزمين بمسايرة المسلمين في الأحوال الشخصية، وأنما يتبعون ما قنن من تشريع عند فقائهم.

ب . الحرية السياسية:

ونعني بما منح الناس الحرية التامة في اعتناق المذاهب السياسية التي تتفق مع رغباتهم وميولهم، وليس للدولة أن تفرض عليهم رأياً سياسياً مخالفاً لما يذهبون إليه، كما أنه ليس لها أن تفرض عليهم الإقلاع عن آرائهم السياسية الخاصة، وأنما عليها أن تقيم لهم الأدلة والحجج الحاسمة على فساد ذلك المذهب، وعدم صحته، فان رجعوا إلى الرشاد فذاك، وإلاّ فتتركهم وشأنهم ما لم يحدثوا فساداً في الأرض، أو يخلّوا بالأمن العام، كما اتفق ذلك من الخوارج الذين فقدوا جميع المقوّمات الفكرية، والركائز العلمية، وراحوا يتمادون في جهلهم وغيهم ويعرضون الناس للقتل والإرهاب، فاضطرّ الإمام عليّ إلى مقاومتهم بعد أن أعذر فيهم.

ومن الجدير بالذكر أن مما يتفرّع على الحرية السياسية حرّية النقد لرئيس الدولة وجميع أعضائها، فالناس أحرار فيما يتولّون، وينقدون، وقد كان الخوارج يقطعون على الإمام أمير المؤمنين عليّ خطاباً، ويخادشون

عواطفه بنقدهم الذي لم يكن واقعياً، وأتما كان مبنياً على الجهل والمغالطة، فلم يتخذ الإمام أي إجراء ضدّهم، ولم يسقهم إلى المحاكم والقضاء لينالوا جزاءهم، وبذلك فقد عهد الإمام إلى نشر الوعي العام، وبناء الشخصية المزدهرة للإنسان المسلم.

هذه بعض صور الحرية التي طبقت أيام حكم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وهي تمثل مدى أصالة منهجه السياسي الذي يساير التطور والابداع.

٢ . نشر الوعي الديني:

واهتم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بصورة إيجابية بنشر الوعي الديني، وإشاعة المثل الإسلامية بين المسلمين، باعتبارها الركيزة الأولى لإصلاح المجتمع وتهدئته.

إنّ من أولى معطيات الوعي الديني اقضاء الجريمة، ونفي الشذوذ والانحراف عن المجتمع، وإذا لم يتلوّث بذلك، فقد بلغ غاية الازدهار والتقدّم.

ومن المقطوع به أنّا لم نجد أحداً من خلفاء المسلمين وملوكهم قد عني بالتربية الدينية كما عني الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، فقد حفل نصح البلاغة بالكثير من خطبه التي تهزّ أعماق النفوس، وتدفعها إلى سلوك المناهج الحريّة، واعتناق الفضائل، وابعادها عن اقتراف الجرائم، وقد أثمرت خطبه في إيجاد طبقة من خيار المسلمين وصلحائهم، قاوموا الانحياز الأخلاقي، وناهضوا التفسخ والتحلل الذي شاع أيام حكم الأمويين، وكان من بين هؤلاء رشيد المهجري وميثم التمار وعمرو بن الحمق الخزاعي، وغيرهم من بناء الفكر الإسلامي.

٣ . نشر الوعي السياسي:

أما نشر الوعي السياسي في أوساط المجتمع الإسلامي فهو من أهم الأهداف السياسية التي تبناها الإمام عليه السلام في أيام حكومته.

ونعني بالوعي السياسي هو تغذية المجتمع وإفهامه بجميع الطرق والوسائل بالمسؤولية أمام الله تعالى، على مراقبة الأوضاع العامة في الدولة وغيرها من سائر الشؤون الاجتماعية للمسلمين حتى لا يقع أيّ تمزق في صفوفهم، أو أيّ تأخر أو ضعف في حياتهم الفردية والاجتماعية، وقد أُلزم الإسلام بذلك، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «كلّكم راع، وكلّكم مسؤول عن رعيته ..» ألقى النبي صلى الله عليه وآله المسؤولية على جميع المسلمين في رعاية شؤونهم، والعمل على حفظ مصالحهم، ودرأ الفساد عنهم.

ومن بين الأحاديث المهمة الداعية إلى مقاومة أئمة الظلم والجور هذا الحديث النبوي الذي ألقاه أبو الأحرار على جلاوزة ابن مرجانة وعبيدة قال: «أيها الناس: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وآله يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيّر ما عليه بفعل ولا قول، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله ..» ^(١).

وكان هذا الحديث الشريف من المحفّزات لسيد الشهداء عليه السلام على إعلان الجهاد المقدّس ضدّ الحكم الأموي الجائر الذي استحلّ ما حرّم الله، ونكث عهده، وخالف سنة رسوله، وعمل في عباد الله بالإثم والعدوان.

(١) حياة الامام الحسين ٣: ٨٠.

إن الوعي السياسي الذي أشاعه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بين المسلمين أيام حكمه قد خلق شعوراً ثورياً ضد الظالمين والمستبدّين، فقد انبرى المجاهدون الأبطال ممن غذاهم الإمام بهذه الروح إلى مقارعة الطغاة، وكان على رأسهم أبو الأحرار سيّد الشهداء وأخوه البطل الفدّ أبو الفضل العباس عليه السلام، والكوكبة المشرقة من شباب أهل البيت عليهم السلام وأصحابهم المجاهدين، فقد هبّوا جميعاً في وجه الطاغية يزيد لتحرير المسلمين من الذلّ والعبوديّة وإعادة الحياة الحرّة الكريمة بين المسلمين... وقد سبق هؤلاء العظماء المصلح الكبير حجر بن عدّي الكندي، وعمرو بن الحمق الخزاعي وزُشيد الهجري، وميثم التّمّار وغيرهم من أعلام الحرية ودعاة الإصلاح الاجتماعي، فقد ثاروا بوجه الطاغية معاوية بن أبي سفيان ممثّل القوى الجاهلية، ورأس العناصر المعادية للإسلام، وعلى أي حال فقد غرس الإمام أمير المؤمنين عليه السلام روح الثورة على الظلم والطغيان في نفوس المسلمين، وأهاب بهم أن لا يقاروا على كظّة ظالم أو سغب مظلوم.

٤ . إلغاء المحسوبيات:

وكان مما عني به الإمام عليه السلام في أيّام حكومته إلغاء المحسوبيات إلغاءً مطلقاً، فالقريب والبعيد عنده سواء، فليس للقريب امتياز خاص، وأنّما شأنه شأن غيره في جميع الحقوق والواجبات كما ساوى بصورة موضوعية بين العرب والموالي مما جعل الموالي يدينون له بالولاء، ويؤمنون بإمامته.

لقد ألغى الإمام جميع صنوف المحسوبيات، وصور العنصريّات، وساوى بين المسلمين على اختلاف قومياتهم مساواة عادلة لم يعهد لها نظير في تاريخ الأمم والشعوب، فقد حملت مساواته روح الإسلام

وجوهره وحقيقته النازلة من ربّ العالمين، فهي التي تجمع ولا تفرّق ولا تجعل في صفوف المسلمين أي ثغرة يسلك فيها أعداء الإسلام لتشتيت شملهم، وتصديع وحدتهم.

هـ . القضاء على الفقر:

أمّا فلسفة الإمام عليّ في الحكم فتبني على محاربة الفقر ولزوم اقضاء شبحة البغيض عن الناس لأنّه كارثة مدمّرة للمواهب والأخلاق، ولا يمكن الأمة أن تحقّق أي هدف من أهدافها الثقافية والصحيّة وهي فقيرة بئسة، إن الفقير يقف سدّاً حائلاً بين الأمة وبين ما تصبو إليه من التطوّر والتقدّم والرخاء بين أبنائها... ومن الجدير بالذكر أن من بين المخططات التي تزيّل شبحة الفقر وتوجب نشر الرخاء بين الناس، والتي عني بها الإسلام بصورة موضوعية وهي:

أ . توفير المسكن.

ب . إقامة الضمان الاجتماعي.

ج . توفير العمل.

د . القضاء على الاستغلال.

هـ . سدّ أبواب المربّين.

و . القضاء على الاحتكار.

هذه بعض الوسائل التي عني بها الإسلام في اقتصاده، وقد تبنّاها الإمام في أيّام حكومته، وقد ناهضتها القوى الرأسمالية القرشية ودفعت بجميع إمكانياتها للإجهاز على حكم الإمام، الذي قضى على مصالحهم الضيقة، وبهذا نطوي الحديث عن منهج الإمام وفلسفته في الحكم.

القوى المعارضة للإمام:

ولا بدّ لنا من وقفة قصيرة لتعرّف على القوى المعارضة لحكومة الإمام، التي لم تكن لها أية أهداف نبيلة، وإنما كانت تبغي الاستيلاء على الحكم للظفر بخيرات البلاد، والتحكّم في رقاب المسلمين بغير حقّ، وفيما يلي ذلك.

السيدة عائشة:

وانطوت نفس السيدة عائشة . مع الأسف . على بغض عارم وكراهية شديدة للإمام أمير المؤمنين عليه السلام، ولعلّ السبب في ذلك . فيما نحسب . يعود إلى ميل زوجها النبي صلى الله عليه وآله إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وإلى بضعته وحببته سيّدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام ، وإلى سبطيه وربحانيته سيّدي شباب أهل الجنّة الحسن والحسين عليهما السلام واشادته دوماً بفضلهم، وسموّ منزلتهم عند الله، وفرض مودّتهم على عموم المسلمين، كما أعلن الذكر الحكيم ذلك، قال تعالى: (**قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ**) وفي نفس الوقت كانت عائشة تعامل معاملة عادية، وفي كثير من الأحيان كان النبي صلى الله عليه وآله يشير إلى أفعالها، فقد قال صلى الله عليه وآله لسنائه: أيتكّنّ تبجحها كلاب الحوآب فتكون ناكبة عن الصراط، وقال صلى الله عليه وآله: من ها هنا يتولّد الشرّ وأشار إلى بيتها، وغير ذلك مما أثار عواطفها.

وثمة سبب في كراهية عائشة للإمام وهو موقفه الصارم الذي وقفه تجاه بيعة أبيها أبي بكر، ومقاطعته لانتخابه، وشجبه لبيعته وبعد سقوط حكومة عثمان كانت تروم إرجاع الخلافة إلى قبيلتها تيم لتكون سياسة الدولة بجميع أجهزتها خاضعة لرغباتها وميولها، وهي على يقين أن

الخلافة إذا رجعت للإمام عليه السلام فإنها سوف تعامل كغيرها من أبناء الشعوب الإسلامية، ولا تحظى بأية مَيّزة، فان جميع الشؤون السياسية والاقتصادية عند الإمام عليه السلام لا بد أن تسير على وفق الكتاب والسنة، ولا مجال عنده للأهواء والعواطف، وكانت عائشة تعرف ذلك جيداً، ولذا أعلنت العصيان والتمرد على حكومته، وقد انضم إليها كل من الزبير وطلحة والامويين وذوي الاطماع والمنحرفين عن الحق من القبائل القرشية الذين ناهضوا الدعوة الإسلامية من حين بزوغ نورها.

وعلى أي حال فقد كانت عائشة من أوثق الأسباب في الإطاحة بحكومة عثمان، وقد أفتت بوجوب قتله، ولما أيقنت بهلاكه خرجت إلى مكة، وهي تتطلع إلى الأخبار، فلما وافاها النبأ بقتله أعلنت فرحتها الكبرى، ولكنها لما فوجئت بالبيعة للإمام عليه السلام انقلب وضعها رأساً على عقب، وراحت تقول بحرارة:

« قتل عثمان مظلوماً والله لأطلبن بدمه .. ».

وأخذت تندب عثمان رياءً لا حقيقة، وقد رفعت قميصه الملطّخ بدمه، وجعلته شعاراً لتمردّها على السلطة الشرعية التي أعلنت حقوق الإنسان، وتبنّت مصالح المحرومين والمضطهدين والتي كانت أمتداداً لحكومة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله.

وعقدت عائشة في مكة الندوات مع أعضاء حزبيها البارزين كطلحة والزبير، وسائر الامويين، وأخذت تتداول معهم الآراء أي بلد يغزونه ليشكلوا فيه حكومة لهم، ويتخذوا منه قاعدة لانطلاقهم في محاربة الإمام، والإجهاز على حكومته، وبعد التأمل والنظر الدقيق في أحوال المناطق الإسلامية أجمع رأيهم على احتلال البصرة لأن لهم بها شيعة وأنصاراً،

وأعلنوا بعد ذلك العصيان المسلّح، وزحفوا نحو البصرة، وقد التحق بهم بهائم البشر، وحثالات الشعوب من الذين ليس لهم فكر ولا وعي، وساروا لا يلوون على شيء حتى انتهوا إلى البصرة، وبعد مقاومة عنيفة بينهم وبين الحكومة المركزية فيها استطاعوا احتلالها، وألقوا القبض على حاكمها سهل بن حنيف وجيء به مخفوراً إلى عائشة فأمرت بنتف لحيته، فنتفتها جلاوزتها وعاد ابن حنيف بعد لحيته العريضة شاباً أمرد.

ولما وافت الأنباء الامام أمير المؤمنين عليه السلام بتمرد عائشة، واحتلالها لمدينة البصرة، سارع بجيوشه للقضاء على هذا الجيب المتمرد، خوفاً من أن تسري نار الفتنة إلى بقية الأمصار الإسلامية، وقد ضم جيشه القوى الواعية في الإسلام أمثال الصحابي العظيم عمّار بن ياسر، ومالك الأشتر، وحجر بن عدي، وابن التيهان وغيرهم ممن ساهموا في بناء الإسلام، وإقامة ركائزه في الأرض.

وسرت جيوش الإمام حتى انتهت إلى البصرة فوجدوها محتلةً بجنود مكثفة، وهم يعلنون الطاعة والولاء لأقهم عائشة، فأرسل الإمام رسله إلى أعضاء القيادة العسكرية في جيش عائشة كطلحة والزبير، فعرضوا عليهم السلم والدخول في مفاوضات بينهم وبين الامام حقناً لدماء المسلمين، فأبوا، وأصرّوا على التمرد والعصيان مطالبين - بوقاحة - بدم عثمان، وهم الذين أطاحوا بحكومته، وأجهزوا عليه.

ولما نفذت جميع الوسائل التي اتخذها الإمام عليه السلام للسلم اضطرّ إلى إعلان الحرب عليهم، وحررت بين الفريقين معركة رهيبة سقط فيها أكثر من عشرة آلاف مقاتل، وأخيراً نصر الله الإمام على أعدائه، فقد قُتل طلحة والزبير، وملقت ساحة المعركة بجثث قتلاهم، وقذف الله الرعب في قلوب

الأحياء منهم فولّوا منهزمين قابعين بالذلّ والعار.

واستولى جيش الإمام على عائشة القائدة العامة للمتمردين، وحملت بحفاوة إلى بعض بيوت البصرة، ولم يتخذ الإمام معها الإجراءات الصارمة، وعاملها معاملة المحسن الكريم، وسارع الإمام فسرحها تسريحاً جميلاً إلى يثرب، لتقرّ في بيتها الذي أمرها الله ورسوله أن تسكن فيه، ولا تتدخل بمثل هذه الأمور التي ليست مسؤولة عنها.

وانتهت هذه الفتنة التي أسماها المؤرّخون (بحرب الجمل) وقد أشاعت في ربوع المسلمين الثكل والحزن والحداد، ومزّقت صفوفهم، وألقتهم في شرّ عظيم... ومن المؤكّد أن دوافع هذه الحرب لم تكن سليمة، ولم تكن حجّة عائشة وحزبها منطقية، وأتما كانت من أجل المطامع، والكراهية الشديدة لحكم الإمام الذي فقدوا في ظلاله جميع الامتيازات الخاصة، وعاملهم الإمام كما يعامل سائر المسلمين.

لقد شاهد أبو الفضل العباس عليه السلام هذه الحرب الدامية، ووقف على أهدافها الرامية للقضاء على حكم أبيه رائد العدالة الاجتماعية في الأرض، وقد استبان له أحقاد القبائل القرشية له واستبان له أن الدين لم ينفذ إلى أعماق قلوبهم، وأتما كانوا يلوكونه بألستهم حفظاً لدمائهم ومصالحهم.

معاوية وبنو أمية:

وفي طليعة القوى المعارضة لحكومة الإمام والمعادية له، معاوية بن أبي سفيان، وبنو أمية، فقد نزع الله الإيمان من قلوبهم، وأركسهم في الفتنة ركساً، فكانوا من ألدّ أعداء الإمام، كما كانوا من قبل من أعداء لرسول الله صلى الله عليه وآله فهم الذين ناهضوا دعوته، وكفروا برسالته، وكادوا له في غلس الليل، وفي وضح النهار، حتى أعزّه الله وأذّهم، ونصره وقهرهم، وقد

دخلوا في الإسلام مكرهين لا مؤمنين به، ولولا سماحة خلق النبي ﷺ وعظيم رأفته ورحمته لما أبقى لهم ظلاً على الأرض، إلا أنه ﷺ منحهم العفو كما منح غيرهم من أعدائه.

ولم يكن للأمميين أي شأن يذكر أيام النبي ﷺ فقد قبعوا بالذل والهوان ينظر إليهم المسلمون بنظرة العداء والخصوم، ويذكرون ما قاموا به في محاربة دينهم، والتنكيل بنبيهم، ومن المؤسف أنه لما فجع المسلمون بفقد نبيهم ﷺ وآل الأمر إلى الخلفاء علا نجم الأمويين، وذلك لأسباب سياسية خاصة، فقد عين أبو بكر يزيد بن أبي سفيان والياً على دمشق، وخرج بنفسه لتوذيعة إلى خارج يثرب تعظيماً له، وإشادة بمكانة أسرته، ولم يفعل مثل ذلك مع بقية عماله وولاته كما يقول المؤرخون، ولما هلك يزيد أسندت ولاية دمشق إلى أخيه معاوية، وكان أثيراً عند عمر تتوافد عليه الأخبار بأنه يشد في سلوكه، وينحرف في تصرفاته عن سنن الشرع وأحكام الإسلام، فقد أخبروه بأنه يلبس الحرير والدياج، ويأكل في أوالي الذهب والفضة، وكل ذلك محرّم في الإسلام، فيقول معتذراً عنه، ومسدداً له: ذاك كسرى العرب ومتى كان ابن هند الصعلوك النذل كسرى العرب!! ولو فرضنا أنه كان كذلك فهل يباح له في شريعة الله أن يقترب الحرام، ولا يحاسب عليه، ان الله تعالى ليست بينه وبين أحد نسب ولا قرابة، فكل من شدّ عن سنّته، وخالف أحكامه فاتّه يعاقبه على ذلك، يقول الرسول الأعظم ﷺ لو عصيت لهويت، ويقول الإمام زين العابدين عليه السلام: ان الله تعالى خلق الجنة لمن أطاعه ولو كان عبداً حبشياً، وخلق النار لمن عصاه ولو كان سيّداً قرشياً.

وعلى أي حال فان عمر قد أغدق بالطفاه ونعمه على معاوية وزاد في

رقعة سلطانه، ونفخ فيه روح الطموح، وقد ظلّ يعمل في ولايته على الشام عمل من يريد الملك والسلطان، فكان يقرب الوجوه والزعماء، ويغدق عليهم بالهبات والأموال، ويشترى الذمم والعواطف، ويركز ولاءه في قلوب الغوغاء.

ومهدت عائشة في ثورتها على حكم الإمام الطريق لمعاوية لإعلانه العصيان المسلح على حكومة الامام التي هي أشرف حكومة ظهرت في الشرق العربي على امتداد التاريخ، وقد تدّرع بها معاوية الذئب الجاهلي لحرب الإمام، واتخذ من دم عثمان وسيلة لإغراء الغوغاء واتهم الإمام بأنه المسؤول عن المطالبة بدمه، وفي نفس الوقت أوعز إلى أجهزة الإعلام أن تندب عثمان، وتظهر براءته مما اقترفه في تصرفاته الاقتصادية والسياسية التي تتجافى مع أحكام الإسلام.

وتسلّح معاوية بكبار الدبلوماسيين، ومهرة السياسة في العالم العربي أمثال المغيرة بن شعبة، وعمرو بن العاص، وأمثالهما ممن كانت لهم الدراية الوثيقة في أحوال المجتمع، فكانوا يضعون له المخططات الرهيبة للتعلّب على الأحداث.

إعلان الحرب:

ورفض معاوية رسمياً بيعة الإمام، وأعلن عليه الحرب، وهو يعلم أنّه أمّا يحارب أخا رسول الله ﷺ ووصيه وباب مدينة علمه، ومن كان منه بمنزلة هارون من موسى، لقد أعلن عليه الحرب كما أعلن أبوه أبو سفيان الحرب على رسول الله ﷺ .
وتشكّل الجيش الذي زحف به معاوية لمحاربة الإمام عليّ من

العناصر التالية:

أ . الغوغاء:

أما الغوغاء فهم جهلة الشعوب، وهم كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً وتستخدمهم السلطة في كل زمان لنيل أهدافها، ولتبني عروشها على جماجمهم، وكانت الأكثرية الساحقة من جيش معاوية من هؤلاء الغوغاء المغرر بهم الذين لا يميّزون بين الحق والباطل، والذين تلوّثهم الدعاية كيفما شاءت، وقد جعلهم معاوية جسراً فعبّر عليهم لنيل مقاصده الشريرة.

ب . المنافقون:

أما المنافقون فهم الذين أظهروا الإسلام في ألسنتهم، وأضرموا الكفر والعداء له في ضمائرهم وقلوبهم، وكانوا يبغون له الغوائل، ويكيدون له في وضح النهار، وفي غلس الليل، وقد ابتلي بهم الإسلام كأشدّ ما يكون البلاء وامتحن بهم المسلمون كأشدّ ما يكون الامتحان لأنهم مصدر الخطر عليهم وقد ضمّ جيش معاوية رؤوس المنافقين وضروسهم أمثال المغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص، ومروان بن الحكم، وأمثالهم من الزمرة الباغية الذين وجدوا الفرصة لهم مواتية لضرب الإسلام وقلع جذوره، وقد تسلّحوا بمعاوية ابن أبي سفيان العدو الأول للإسلام فناصروه، وساروا في جيشه لمحاربة أخي رسول الله ﷺ ووصيه، والمنافع الأول عن الإسلام.

إنّ جميع من حارب رسول الله ﷺ من المنافقين قد انضمّوا إلى معاوية وصاروا من حزبه وأعوانه في محاربة الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام .

ج . النفعيون:

ونعني بهم الجماعة التي فقدت امتيازاتها ومنافعها للامشروعة في ظلّ حكم الامام رائد العدالة الاجتماعية في الأرض، وفي طليعة هؤلاء، العمّال

والولادة، وسائر الموظفين في حكومة عثمان، فقد فقدوا منافعهم وخافوا على مصادرة ما عندهم من الأموال التي اختلسوها من الشعب أيام عثمان، كما تمّ عزلهم عن مناصبهم فور تقلّد الإمام للحكم.

هذه بعض العناصر التي تشكّل منها جيش معاوية، وقد زحف بهم إلى محاربة قائد الإسلام، ورائد العدالة الإنسانية.

احتلال الفرات:

وانجّمت جيوش معاوية صوب العراق، فعسكرت في منطقة صفيين واختارتها مركزاً للحرب، وأوعزت القيادة العامة إلى قطعات الجيش باحتلال الفرات، ووضع المفارز على حوض الفرات لمنع جيش الإمام من الشرب ليموتوا عطشاً، وقد اعتبر معاوية ذلك أوّل النصر والفتح، وتمّ ذلك عن خبث طبيعته ولؤم عنصره، فان لكل إنسان بل ولكل حيوان حقاً طبيعياً في الماء عند كافة الأمم والشعوب، ولكن معاوية وبني أمية قد تخلّوا عن جميع الأعراف، فاستعملوا منع الماء كسلاح في معاركهم، فقد منعوا الماء يوم الطفّ عن ريحانة رسول الله ﷺ وأهل بيته حتى أشرفوا على الموت من شدّة الظمّ.

ولما علم الإمام عليه السلام بزحف معاوية لحربه ابّجّه بجيوشه نحو صفيين فلما انتهوا إليها وجدوا حوض الفرات قد احتلّ من قبل معسكر معاوية، ومنعواهم من تناول قطرة من الماء، وألحّ العطش بجيش الإمام فانبرت إليه قادة جيشه، وطلبوا منه الإذن في مقارعة القوم، فرغب الإمام قبل أن يبدأهم بالحرب أن يطلبوا منهم السماح في تناول الماء، إذ ليس لهم من سبيل أن يتخذوه وسيلة لكسب المعركة لأن الماء مباح لكل إنسان وحيوان عند جميع الشرائع والأديان، وعرض عليهم أصحاب الإمام ذلك إلاّ أنّهم

أبوا وأصروا على غيِّهم وعدوانهم، فاضطرَّ الإمام بعد ذلك إلى أن يسمح لقوّاته المسلّحة بفتح نار الحرب عليهم، فحملوا عليهم حملة واحدة، ففروا منهزمين شرّ هزيمة، وتركوا مواقعهم فاحتلتها جيوش الإمام، وأصبح نهر الفرات بأيديهم، انطلق فريق من قادة الجيش نحو الإمام فطلبوا منه أن يسمح لهم في منع الماء عن أصحاب معاوية كما منعوهم عنه، فأبى الإمام أن يقابلهم بالمثل، فأباح لهم الماء كما هو مباح للجميع في شريعة الله، ولم يشكر الامويون الأوغاد هذه اليد البيضاء التي أسداها عليهم الإمام، فقد قابلوه بالعكس، فمنعوا الماء عن أبنائه في كربلاء حتى صرعهم الظمأ، وأذاب العطش قلوبهم.

دعوة الإمام إلى السلم:

وكره الإمام أشدّ الكره الحرب وإراقة الدماء، فدعا إلى السلم، والوثام فقد أرسل عدّة وفود إلى ابن هند يدعوهم إلى الدخول فيما دخل فيه المسلمون وأن يجنّبهم من الحرب فأبى ولم يستجب لهذه الدعوة الكريمة، وأصرّ على الغيِّ والعدوان، وتذرع كذباً بالمطالبة بدم عثمان الذي ما أراق دمه إلاّ سوء تصرّفاته السياسية والإدارية.

الحرب:

ولما فشلت جميع الجهود التي بذلها الإمام من أجل السلم وحقن الدماء اضطرَّ إلى أن يفتح مع عدّوه باب الحرب، وقد خاض معه حرباً مدمّرة سقط فيها عشرات الآلاف من القتلى فضلاً عن المعوقين من كلا الجانبين واستمرّت الحرب أكثر من سنتين كانت تشتدّ حيناً، وتفتّر حيناً آخر، وفي المرحلة الأخيرة من الحرب كاد الإمام أن يكسب المعركة،

وتحسم من صالحه، فقد بان الانكسار في جيش معاوية، وتفللت جميع قواعد عسكره، وعزم معاوية على الهزيمة لولا أن تذكّر قول ابن الأظنابة:

أبّت لي عفتي وحياء نفسي أقدامي على البطل المشيح
واعطائي على المكروه مالي أخذي الحمد بالثمن الريح
وقولي كلما جشأت وجاشت كانك تحمدي أو تسريحي

فردّه هذا الشعر إلى الصبر والثبات كما كان يتحدّث بذلك أيام العافية، وفيما أحسب أن هذا الشعر ليس هو الذي ردّه إلى الثبات وعدم الهزيمة إذ ليست لابن هند آية عفة أو حياء نفس، ولا غير ذلك مما حوته هذه الأبيات وإنما ردّه إلى الصبر هو ما دبره من المكيدة والخديعة التي مزّقت الجيش العراقي، وهو ما سنتحدّث عنه.

الخديعة الكبرى:

وآن النصر المحتم لجيش الإمام، فقد أشرف على الفتح، ولم يبق إلا مقدار حلبة شاة من الوقت حتى يؤسر معاوية أو يقتل كما أعلن ذلك قائد القوّات المسلحة في جيش الإمام الزعيم مالك الأشتر، ومن المؤسف جدّاً أنّه في تلك اللحظات الحاسمة مُني الإمام بانقلاب عسكري في جيشه، فقد رفع عسكر معاوية المصاحف على أطراف الرماح، وهم ينادون بالدعوة إلى تحكيم القرآن، وإنهاء الحرب حقناً لدماء المسلمين، واستجابت قطععات من جيش الامام لهذا النداء الذي يحمل التدمير الشامل لحكومة الإمام وأفول دولة القرآن.

يا للعجب لقد نادى جيش معاوية بالرجوع إلى تحكيم القرآن، ومعاوية وأبوه هما في طليعة من حارب القرآن.

أصحیح أنّ ابن هند يؤمن بالقرآن، ويحرص على دماء المسلمين

وهو الذي أراق أنهاراً من دمائهم إرضاءً لجاهليته، وانتقاماً من الإسلام.
وكان أول من استجاب لهذا النداء المزيف العميل الأموي الأشعث ابن قيس، فقد جاء
يشتد كالكلب نحو الإمام، وقد رفع صوته ليسمعه الجيش قائلاً:
« ما أرى الناس إلا قد رضوا، وسرهم أن يجيبوا القوم إلى ما دعوهم إليه من حكم
القرآن، فان شئت أتيت معاوية فسألته ما يريد .. ».

وامتنع الإمام من إجابة هذا العميل المنافق الذي طعن الإسلام في صميمه، والتفت حول
الأشعث جماعة من الخونة فأحاطوا بالإمام، وهم ينادون: أجب الأشعث، ولم يجد الإمام بُدّاً
من إجابته، فانطلق الخائن صوب معاوية، فقال له:

« لأيّ شيء رفعت هذه المصاحف؟ .. »

فأجابه معاوية مخادعاً:

ولنرجع نحن وأنتم إلى أمر الله عزّ وجلّ في كتابه تبعثون منكم رجالاً ترضون به، ونبعث
منا رجالاً، ثم نأخذ عليهما أن يعملوا بما في كتاب الله لا يعدوانه ثم نتبع ما اتفقا عليه .. ».

ورفع الأشعث عقيرته قائلاً:

« هذا هو الحق .. ».

وخرج الأشعث من معاوية، وهو ينادي بضرورة إيقاف الحرب، والرجوع إلى كتاب الله
العظيم، ومن المؤكّد أنّ هذه الحركة الانقلابية التي تزعمها هذا المنافق العميل لم تكن وليدة
رفع المصاحف، وأتما كانت قبل زمن ليس بالقليل، فقد كانت هناك اتّصالات سرّية بين
الأشعث وبين معاوية ووزيره والفكر المدبّر لخدعه وأباطيله عمرو بن العاص، ومما يدل

على ذلك أنه لم تكن هناك رقابة ولا مباحث في جيش الامام على من يتصل بمعسكر معاوية فقد كان الطريق مفتوحاً، وجرت اتصالات مكثفة بين معاوية والأشعث وغيره من قادة الجيش العراقي، وقدم لهم معاوية الرشوات، ومنّاهم بالمراتب العالية، وبالمزيد من الأموال إن استجابوا لدعوته.

وعلى أيّ حال فقد أرغم الإمام على قبول التحكيم، فقد أحاطت به قطعات من جيشه وقد شهرت عليه السيوف والرماح وهي تنادي: « لا حكم إلاّ الله » واتخذوا هذا النداء شعاراً لتمرّدهم، ووقفهم ضدّ الامام، وسرعان ما أصبحوا حركة ثورية، ومصدر قلق مثير للفتن والاضطراب.

وعلى أيّ حال فقد جهد الإمام بنفسه ورسله على إقناعهم، وإرجاعهم إلى طريق الحقّ والصواب، فلم يتمكن، ورأى أنّهم جادّون على مناجزته والإطاحة بحكومته، فاستجاب لهم، وأوعز إلى قائد قوّاته العسكرية الزعيم مالك الأشتر بالانسحاب عن ساحة الحرب، وإيقاف العمليات العسكرية، وكان قد أشرف على الفتح فلم يبق بينه وبين الاستيلاء على معاوية سوى مقدار حلبة شاة، ورفض مالك الاستجابة وأصرّ على مزاولة الحرب إلاّ أنّه أخبر بأنّ الإمام في خطر، وان المتمرّدين قد أحاطوا به، فاضطرّ إلى إيقاف الحرب، وبذلك فقد تمّ ما أرادته معاوية من الإطاحة بحكومة الإمام، وكتب له في تلك اللحظات النصر على الإمام، وقد انتصرت معه الوثنية القرشية كما يقول بعض الكتاب والمحدثين.

التحكيم:

وتوالى المحن والأزمات على الإمام يتبع بعضها بعضاً، وانكشفت خفايا هؤلاء العملاء المتمرّدين، فقد أصرّوا على انتخاب أبي موسى

الأشعري ليكون ممثلاً عن العراق، والأشعري خبيث دنس كان حقوداً على الإمام، ومن ألدّ أعدائه وخصومه، وفي نفس الوقت لم يملك وعياً ولا فهماً للأحداث، وكان بليداً ومناقماً، واتّخذ المنافقون والمتمردون في جيش الإمام جسراً فعبروا عليه لنيل مقاصدهم الخبيثة لعزل الإمام عن الحكم عن الحكم، وتثبيت معاوية في مركزه.

ولم يستطع الإمام إيقاف هذا المدّ التأمري في جيشه، فقد أصبح قادة جيشه يتلقّون الأوامر والتوجيهات من قبل معاوية ووزيره ابن العاص، وصار الإمام بمعزل تام عن الحياة السياسية، فقد أصبح يأمر جيشه فلا يطيع، ويدعوه فلا يستجيب له، وصارت دقّة الحكم كلّها بيد معاوية.

لقد حكم الأشعري بعزل الإمام، وحكم ابن العاص بإبقاء معاوية، وبذلك فقد انتهت مهزلة التحكيم إلى عزل الإمام عن منصب الحكم، وتقليده لمعاوية وانطوت بذلك أقدس حكومة إسلامية ظهرت في الشرق كان يرجى منها أن تقوم ببسط العدل السياسي والعدل الاجتماعي بين الناس، فلم تدعها هذه الوحوش الكاسرة من ذئاب الأمويين، وسائر القبائل القرشية من تحقيق أهدافها ومثلها العليا.

لقد شاهد أبو الفضل العباس عليه السلام وهو في دور الشباب فصول هذه المأساة الكبرى فكوت قلبه، وهزّت عواطفه، فقد جرت لأهل بيته المصائب، وأخلدت لهم المحن والخطوب.

ثورة الخوارج:

ومن بين المحن الشاقة التي امتحن بها الإمام امتحاناً عسيراً هي ثورة الخوارج فقد كان معظمهم من بهائم البشر، فقد امتطاهم معاوية، وجعلهم جسراً لنيل أطماعه وأهدافه من حيث لا يشعرون، فهم الذين أرغموا الإمام

على قبول التحكيم، وإيقاف عمليات الحرب، وهم الذين أصروا على انتخاب المنافق أبي موسى الأشعري، ولما عقد التحكيم، وأعلن أبو موسى عزل الإمام عن منصبه، وأعلن ابن العاص إقامة سيده معاوية في مركزه أسفوا على ما فُرضوا في أمر المجتمع الإسلامي واستنابت لهم المكيدة التي دبرها ابن العاص في رفع المصاحف وعابوا على الإمام وكفروه لاستجابته لهم، وفي الحقيقة هم الذين يتحملون جميع المسؤوليات الناجمة عن ذلك.

ولما نزع جيش الإمام من صقّين إلى الكوفة لم يدخلوا معه إليها وإنما انحازوا إلى حروراء فنسبوا إليها، وكان عددهم فيما يقول المؤرّخون اثني عشر ألفاً، وأذن مؤدّهم أن أمير القتال المنافق شيبث بن ربعي الذي كان من قادة الجيش الذي حارب ربحانة رسول الله ﷺ الإمام الحسين عليه السلام، كما نصبوا إماماً للصلاة عبد الله بن الكواء العسكري، وجعلوا الأمر شورى بعد الفتح، والبيعة لله عزّ وجلّ، وجعلوا من أهمّ الأحكام التي يقاتلون من أجلها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجعلوا شعارهم « لا حكم إلاّ لله » ولكنهم سرعان ما تنكّروا لهذا الشعار فجعلوا الحكم للسيوف وذلك بما أراقوه من دماء الأبرياء، وما نشره من الذعر والخوف بين المسلمين.

وبعث الإمام إليهم بعض رسله يعدّهم عن فكرتهم، ويرشدهم إلى طريق الحقّ والصواب، فلم يجد ذلك معهم شيئاً، فانطلق عليه السلام بنفسه إليهم، ومعه أعلام أصحابه، فجعل يناظرهم، ويقوم الأدلة الوثيقة على فساد رأيهم، وضلالة قصدهم، فاستجاب له قوم، وأبي قوم آخرون، وجعل الأمر يمعن في الفساد بين الإمام وبينهم، وأخذوا ينشرون الإرهاب، واعمال التخريب، ويعيثون في الأرض فساداً، وقد رحلوا عن الكوفة،

وعسكروا في النهروان، واحتاز عليهم الصحابي الجليل عبد الله بن خباب ابن الأرت، وهو من أعلام أصحاب الإمام فدارت بينه وبينهم أحاديث، فعمدوا إليه فقتلوه، وقتلوا معه السيِّدة زوجته، ولم يقف شرهم عند هذا الحدّ، وأنما أخذوا يذيعون الذعر والخوف بين المسلمين.

وبعث الإمام إليهم الحارث بن مرة العبدي ليسألهم عما أحدثوه من الفساد، فلما انتهى إليهم اجهزوا عليه وقتلوه، ورأى الإمام بعد هذا أنّهم يشكّلون خطراً كبيراً على دولته، وأنهم مصدر فتنة وتخريب بين المسلمين، وإن الواجب يقضي بحربهم فزحف إليهم بجيشه، ودارت بينه وبينهم معركة رهيبة، فقتلوا عن آخرهم ولم يفلت منهم إلا تسعة^(١) وانتهت بذلك حرب النهروان وقد شاهد أبو الفضل العباس عليه السلام هذه الحرب ووقف على دوافعها التي كان منها كراهة هؤلاء القوم لعدل الإمام، وتفانيه في إقامة الحقّ بين الناس.

ومن الجدير بالذكر أن أبا الفضل العباس عليه السلام لم يشترك في حرب النهروان ولا في حرب صفين، فقد منعه الإمام كما منع بعض أبنائه، واعلام أصحابه من الدخول في الحرب ضناً بهم على الموت، ومما يدل على ذلك أن الذين كتبوا عن واقعة صفين والنهروان لم يذكروا أيّ دور لسيدنا العباس فيهما.

النتائج الفظيعة:

وأعقبت حرب الجمل، وحرب صفين أسوأ الأحداث وأقساها

(١) حياة الامام الحسن ١: ٣٥٨ الطبعة الثالثة.

وأشققها محنة على الإمام عليؑ ومن بينها:

١ - التمرّد الكامل في جيش الإمام فقد أصبحت جميع قطعاته غير مطيعة لأوامر الإمام. لقد شاعت الهزيمة النفسية في جيش الإمام، وفقدت قطعاته الروح المعنوية، وتخاذلت تخاذلاً مطلقاً أمام الأحداث التي مُني بها.

٢ - وعمد معاوية بعد معركة صفين إلى تعزيز جيشه وتماسكه، وقد بثّ فيه روح العزم والإخلاص، وقد وثق بالنصر والفتح والتغلب على جيش الإمام.

٣ - وتعرّضت البلاد الإسلامية الخاضعة لحكم الإمام لحملات إرهابية عنيفة كانت تشنّها العصابات المجرمة التي يبعثها معاوية لإشاعة الخوف والذعر فيها، وقد تعرّضت المناطق القريبة من عاصمة الإمام لهجمات الإرهابيين من كلاب معاوية، والإمام لم يتمكن من حمايتها وحفظ الأمن والاستقرار فيها فكان يدعو بحرارة جأشه للذبّ عن حياض الوطن، وحمائته من الاعتداء فلم يستجب له أحد منهم.

٤ - واحتلّت جيوش معاوية مصر احتلالاً عسكرياً، وبذلك خرجت عن حكم الإمام، وقد أُصيبت حكومة الإمام بنكسه كبيرة، ولم تعد بعد هذه الأحداث إلا شكلاً خاوياً في ميدان الحكم.

مصراع الإمام:

وبقي الإمام الممتحن في ارباض الكوفة قد أحاطت به المحن والأزمات يتبع بعضها بعضاً، يرى باطل معاوية قد استحکم، وشرّه قد استفحل وهو لا يتمكن أن يقوم بأي عمل لتغيير الأوضاع الاجتماعية

المتدهورة المنذرة بأفول دولة الحق، وإقامة حكومة الظلم والجور.

لقد استوعبت المحن الشاقة التي أحاطت بالإمام نفسه الشريفة فراح يدعو الله، ويتوسل إليه بجرارة أن ينقله إلى جواره، ويرجحه من هذا العالم المليء بالفتن والأباطيل، واستجاب الله دعاء الإمام فقد عقدت عصاة مجرمة من الخوارج مؤتمراً في مكّة، وأخذوا يذكرون بمزيد من الأسى والحزن قتلاهم الذين حصدت رؤوسهم سيوف الحق في النهروان، وعرضوا ما مني به العالم الإسلامي من الفتن والانشقاق وألقوا تبعه ذلك حسب زعمهم على الإمام أمير المؤمنين، ومعاوية وعمرو بن العاص، فقرّروا القيام باغتيالهم، وعيّنوا لذلك وقتاً خاصاً، وضمن لهم ابن اليهودية عبد الرحمن بن ملجم اغتيال الامام أمير المؤمنين، ومن الجدير بالذكر أن مؤتمّهم كان بمراءى ومسمع من السلطة المحليّة بمكّة، وأكبر الظنّ أنّها كانت على اتصال معهم وان القوى المنحرفة عن الإمام قد أمّدت ابن ملجم بالمال ليقوم باغتيال الإمام. وعلى أيّ حال فقد قفل ابن ملجم راجعاً إلى الكوفة وهو يحمل شرّ أهل الأرض، ويحمل الكوارث المدمّرة للمسلمين، وفور وصوله إلى الكوفة اتصل بعميل الامويين المنافق الأشعث بن قيس، وأخبره بمهمته، فشجّع على اقرار الجريمة، وأبدى له تقديم جميع ألوان المساعدات لتنفيذها.

وفي ليلة التاسع عشر من رمضان شهر الله المبارك اتّجه زعيم الموحدّين وسيّد المتقين نحو مسجد الكوفة ليؤدّي صلاة الصبح، فأقبل نحو الله، فشرع في صلاته، ولما رفع رأسه من السجود علاه ابن اليهودية بالسيف فشقّ رأسه الشريف الذي كان كنزاً من كنوز العلم والحكمة

والإيمان، والذي ما فكر إلا بتوزيع خيرات الله على البؤساء والمحرومين، وإشاعة الحق والعدل بين الناس.

ولما أحسَّ الإمام بلذع السيف علت على شفثيه ابتسامه الرضا والظفر، وراح يقول:
« فزت وربّ الكعبة .. ».

لقد فزت يا إمام المصلحين، فقد وهبت حياتك لله وجاهدت في سبيله جهاد المنيين والمخلصين.

لقد فزت يا إمام المتقين لأنك في طيلة حياتك لم توارب ولم تخادع ولم تداهن، ومضيت على بصيرة من أمرك مقتدياً بسيد المرسلين ابن عمك صلى الله عليه وعليك، فكان ذلك حقاً هو الفوز العظيم.

لقد فزت أيها الإمام الحكيم لأنك خبرت الدنيا، وعرفتها دار فناء وزوال فطلقتها ثلاثاً، وأعرضت عن زينتها ومباهجها واتجهت صوب الله فعملت كل ما يرضيه، وما يقربك إليه زلفى.

وحمل الإمام إلى منزله، وقد فاضت عيون الناس بالدموع وتقطعت النفوس ألماً وحزناً، وكان الإمام هادئ النفس قرير العين، قد تعلّق قلبه بالله، وهام في مناجاته، وقد سأله مرافقة الأنبياء والأوصياء، وأخذ يلقي نظراته على أولاده، وخصّ ولده أبا الفضل بالعطف والحنان، واستشفّ من وراء الغيب أنّه ممن يرفع رايه القرآن، ويقوم بنصرة أخيه ربحانة رسول الله المنافع الأول عن رسالة الإسلام.

وصايا خالدة:

ولما شعر الإمام العظيم بدنو أجله المحتوم أخذ يوصي أولاده

بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، وأمرهم أن يجسّدوا الإسلام في سلوكهم واتجاهاتهم، وفيما يلي بعض بنود وصيّته.

أ. التحلّي بتقوى الله التي هي الأساس في بناء الشخصية الإسلامية على أساس متكامل من الوعي والازدهار.

ب. الالتزام بالحق قولاً وعملاً وبه تصان الحقوق وتسود العدالة الاجتماعية بين الناس.

ج. مناجزة الظالم والوقوف في وجهه، ومناصرة المظلوم ومساعدته، وفي ذلك إقامة للعدل الذي هو من أهم الأهداف الأصيلة التي ينشدها الإسلام.

د - السعي في إصلاح ذات البين، وإزالة البغضاء والكراهية بين المتخاصمين وهو من أفضل الأعمال وأهمّها في الإسلام لأن فيه إقامة لمجتمع متطوّر قائم على المحبة والمودة.

هـ - مراعاة الأيتام، والقيام بصلتهم، ورفع الحاجة عنهم، وهذا من جملة بنود التكافل الإسلامي الذي هو من أبداع ما شرّعه الإسلام في نظامه الاقتصادي.

و - الإحسان إلى الجيران، والإغداق عليهم بالبرّ والمعروف لأن فيه إشاعة للمحبة بين المسلمين، كما أنّه في نفس الوقت من أهمّ الوسائل في تماسك المجتمع الإسلامي ووحدته.

ز - العمل بما في القرآن الكريم من أحكام وسنن وآداب فأنّه خير ضمان لصيانة سلوك الإنسان المسلم، وتهدية، ورفع مستواه.

ح. إقامة الصلاة في أوقاتها وأدائها على أحسن وجه فأتمّ عمود

الدين ومعراج المؤمن، وهي ترفع الإنسان إلى مستوى عظيم إذ تشرفه بالاتصال بخالق الكون وواهب الحياة.

ط - إحياء المساجد بذكر الله من العبادة والعلم، وتعتبر المساجد من أهمّ المراكز في إشاعة الآداب والفضائل بين المسلمين.

ي - الجهاد في سبيل الله بالأنفس والأموال لإقامة معالم الدين وإحياء السنّة، وإماتة البدعة.

ك - إشاعة المحبّة والموادّة بين المسلمين، وذلك بالتواصل والتوادد وترك التدابر والتقاطع، وغير ذلك مما يؤدّي إلى فصم عرى الوحدة بينهم.

ل - إقامة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر لأنّه مما يؤدّي إلى إقامة مجتمع سليم تسوده العدالة، أما ترك ذلك فإن له من المضاعفات السيّئة التي توجب ارتطام المجتمع بالفتن والبلاء كتولية الفساق والأشرار لشؤونهم، وعدم استجابة الدعاء من أفرادهم.

هذه بعض الوصايا الخالدة التي أدلى بها الإمام العظيم، وهو على فراش الموت^(١).

إلى جنة المأوى:

وسرى السمّ في جميع أجزاء بدن الإمام عليه السلام من جرّاء الضربة الغادرة التي عمّمه فيها ابن اليهودية عبد الرحمن بن ملجم، وأخذ الموت يدنوا إليه سريعاً سريعاً، وقد استقبل إمام المتّقين الموت بثغر باسم، ونفس آمنة مطمئنّة متعطّشة إلى لقاء الله راضية بقضائه وقدره، وكان لا يفتّر لحظة

(١) يلاحظ نصح البلاغة فقد حفل بهذه الوصايا القيّمة.

واحدة عن ذكر الله، وقراءة كتابه، وقد حفّ به أبناؤه وهم يذرفون أحمرّ الدموع قد مرّق المصاب قلوبهم، وقد استقبل القبلة حامداً لله حتى ارتفعت روحه العظيمة إلى بارئها تحفّها ملائكة الرحمن، وأرواح الأنبياء والأوصياء وقد ازدهرت به جنان الخلد.

لقد توفّي عملاق الفكر الإنساني، ورائد العدالة الاجتماعية في الأرض، لقد عاش هذا الامام العظيم غريباً في مجتمع لم يعرف مكانته، ولم يع قيمه وأهدافه التي كان منها أن ينفي البؤس والشقاء من الأرض، وينفي الحاجة والحرمان عن بني الإنسان، فيوزع عليهم خيرات الله، فتارت في وجهه العصابة المجرمة من الرأسمالية القرشية، وأوغاد الأمويين الذين اتخذوا مال الله دولاً، وعباد الله حولاً، وقد صمد الإمام في وجوههم، ولم ينثن عن عزمه الجبار حتى استشهد مناضلاً عن قيمه وأهدافه.

تجهيزه:

وانبرى الإمام الحسن عليه السلام، ومعه السادة الكرام من إخوانه ومن بينهم أبو الفضل العباس عليه السلام إلى تجهيز الجثمان العظيم، فغسلوا الجسد الطاهر، ثم أدرجوه في أكفانه، وهم يذرفون أحمرّ الدموع وبعد ذلك حملوه إلى مقرّه الأخير، فدفنوه في مرقده المطهر في النجف الأشرف، وقد أعزّه الله، ورفع من شأنه فجعله كعبةً للوافدين، ولم يحظ مرقده من مرقد أولياء الله كما حظي مرقده الشريف فقد أحيط بحالة من التعظيم والتقدّيس عند كافة المسلمين.

لقد شاهد سيّدنا أبو الفضل العباس عليه السلام خلافة أبيه، وما رافقها من الأحداث الجسام، وما قاساه أبوه من المصاعب والمشاكل في سبيل تطبيق

العدالة الاجتماعية على واقع الحياة العامة بين المسلمين وقد تنكّرت له وحرارته القوى الباغية على الإسلام، والحاكمة على الإصلاح الاجتماعي.

لقد وعى العباس الأهداف المشرفة التي كان ينشدها أبوه فأمن بها، وجاهد في سبيلها، وقد انطلق مع أخيه سيّد الشهداء إلى ساحات الشرف والجهاد من أجل أن يعيدا للمسلمين سيرة أبيهما الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ومنهجه المشرق في عالم السياسة والحكم.

خلافة الإمام الحسن:

وتسلّم الإمام الحسن عليه السلام قيادة الدولة الإسلامية بعد وفاة أبيه، وكانت الأوضاع الاجتماعية والسياسية، كلها في غير صالحه، فالأكثرية الساحقة من الرؤساء والقادة العسكريين كانت اتجاهاً وميوهم سراً وعلانية مع معاوية، فقد غزاهم بذهبه، واسترقهم بأمواله، كما انتشرت بين كتائب جيشه فكرة الخوارج التي كانت سوسة تنخر في معسكره، وتعلن عدم شرعية خلافته، وخلافة أبيه من قبل، ومن ثمّ كان إقبال الجماهير على مبايعته فاتراً جداً، وكذلك لم تندفع القوات المسلّحة بحماس إلى بيعته، وإمّا كانت مرغمة على ذلك، الأمر الذي أوجب تريبّ الإمام الحسن منهم، ويرى المراقبون للأوضاع السياسية في جيش الإمام أنّه قد ماج في الفتنة وارتطم في الشقاء، وان خطرته على الإمام كان أعظم من خطر معاوية وإنّه لا يصلح بأي حال من الأحوال لأن يخوض الامام به أي ميدان من ميادين الحرب.

وعلى أي حال فان الإمام قد تسلّم قيادة الدولة، وقد منيت بالانحلال والضعف، وشيوع الفتن والاضطراب فيها، وان من العسير جداً السيطرة

على الأوضاع الاجتماعية، وإخضاع البلاد إلى عسكره. اللهم إلا بسلوك أمرين:
الأول: - إشاعة الأحكام العرفية في البلاد، ومصادرة الحريات العامة، ونشر الخوف
والارهاب، وأخذ الناس بالظنّة والتهمة، وهذا ما يسلكه عشاق الملك والسلطان حينما يمتنون
بمثل هذه الأزمات في شعوبهم.

أما أئمة أهل البيت: فأنهم لا يرون مشروعية هذه السياسة، وإن أدّت إلى الانتصار،
ويرون ضرورة توفير الحياة الحرة الكريمة للشعب، واقضاء الوسائل الملتوية عنه.
الثاني: - تقديم الطبقة الرأسمالية وذوي النفوذ على فئات الشعب، ومنحهم الأموال
والامتيازات الخاصة، والوظائف المهمة ولو فعل ذلك الإمام الحسن لاستقرت له الأمور، وما
مُني جيشه بالتمرد والانحلال، إلا أنه ابتعد عن ذلك ابتعاداً مطلقاً لأنه لا تبيحه شريعة الله.
لقد كان منهج الإمام الحسن في سياسته واضحاً لا لبس فيه ولا غموض وهو التمسك
بالحق، وعدم السلوك في المنعطفات، واجتناب الطرق الملتوية، وإن أدّت إلى الظفر والنصر.

إعلان معاوية للحرب:

وبادر معاوية إلى إعلان الحرب على سبط رسول الله ﷺ لأنه على علم بما مُني به
جيش الإمام من الانحلال والخيانة فأغلب قادة الفرق، وضباط الجيش، وسائر المراتب قد
رشاهم معاوية بذهبه وأمواله، ومناهم بالوظائف العالية، كما كاتب بعضهم بأن يزوجه
بإحدى بناته، فقد استعمل

الرشوة معهم على نطاق واسع، وقد استجابوا له، وضمنوا له تسليم الإمام أسيراً متى شاء وأراد، أو اغتياله، وقد حفزته هذه العوامل لاستعجال الحرب وحسم الموقف من صالحه. وزحف معاوية بجيوشه المتماسكة والمطيعه صوب العراق، ولما علم الامام الحسن بذلك جمع قواته المسلحة، وأعلمهم بالأمر ودعاهم إلى الجهاد وردّ العدوان فوجموا وساد عليهم الذعر والخوف فلم يجبه أحد منهم فقد آثروا العافية، وسئموا من الحرب، ولما رأى تخاذلهم الزعيم الكبير عدي بن حاتم تميّز غيظاً وغضباً، واندفع بحماس بالغ نحوهم فجعل يؤتّبهم على هذا التخاذل، وأعلن استجابته المطلقة لدعوة الإمام، ودعم موقفه كلّ من الزعيم الشريف قيس بن سعد بن عبادة، ومعقل بن قيس الرياحي، وزباد بن صعصعة التميمي فأخذوا يلومونهم على هذا الموقف الذي ليس فيه شرف ولا إنصاف، ويعثونهم إلى ساحات الجهاد.

وخرج الإمام الحسن عليه السلام من فوره لمقابلة معاوية، وسار معه أخلاط من الناس حتى انتهى إلى النخيلة فاستقام فيها حتى التحمت به فصائل من جيشه المتخاذل، ثم ارتحل حتى إنتهى إلى دير عبد الرحمن فأقام به ثلاثة أيام، ثم واصل سيره لا يلوي على شيء.

في المدائن:

وانتهى الإمام، ومعه بعض الفرق من جيشه إلى المدائن، فأقام بها، وقد أحاطت به المصاعب والأزمات فقد عانى من جيشه الممزق والخائن ألواناً شاقّة وعسيرة من المحن والمشاكل، وابتلي بما لم يتبل به أحد من

قادة المسلمين وخلفائهم، وكان من بين ما امتحن به:

١ . خيانة القائد العام:

وكان من أقسى ما ابتلي به الإمام في تلك المرحلة الحساسة خيانة ابن عمّه عبيد الله بن العباس القائد العام لقوّاته المسلّحة، فقد أرشاه معاوية بما يقارب المليون درهم، فولّى الخائن الجبان منهزماً تحت جناح الليل البهيم يصحب معه العار والخزي، فالتحق بمعسكر معاوية، ولما علم الجيش بذلك اضطرب اضطراباً هائلاً، وماج في الفتنة والشقاء، ودبّت روح الخيانة في جميع قطعات الجيش كما خان جماعة من ذوي الرتب العليا في الجيش فالتحقوا بمعسكر معاوية بعد أن أرشاهم بأمواله.

ان خيانة عبيد الله من أقسى الضربات التي حلّت بجيش الإمام، فقد فتحت أبواب الخيانة على مصراعها لذوي الضمائر القلقة لبيع ضمائرهم على معاوية، كما أدّت إلى انهيار معنويات جيش الإمام، وفي نفس الوقت كانت من أقسى الصدمات التي واجهها الإمام في تلك الفترة العصيبة فقد ألقت له الأضواء على نفوس أغلب قادة جيشه، وأنهم مجموعة من الخونة الذين لا يملكون أي رصيد ديني أو وطني.

٢ . محاولات لاغتيال الإمام:

ولم تقتصر محنة الإمام وبلواه من جيشه إلى هذا الحدّ، وأتت امتدّت إلى ما هو أعظم من ذلك فقد قام عملاء الامويين وبهائم الخوراج بعدة عمليات لاغتيال الإمام، وقد فشلت جميعها وهي:

أ. رمي الإمام بسهم وهو في أثناء الصلاة، ولم يؤثر فيه شيئاً.

ب. طعنه بخنجر في أثناء الصلاة.

ج. طعنه في فخذه.

وضاقت الدنيا على ريحانة رسول الله ﷺ وطافت به المحن والأزمات وأيقن أنه لا محالة
أما أن يُغتال، ويضاع دمه هدرًا أو يلقى عليه القبض ويبعث أسيراً إلى معاوية، وأجال النظر
في هذه الأمور فأفرغته إلى حدّ بعيد.

٣. الحكم عليه بالكفر:

وتمادى الخونة والعملاء في جيش الإمام في الجريمة والشرّ، فقد قابلوا الإمام بكلمات
كانت أشدّ عليه من ضرب السيوف وطعن الرماح، فقد أقبل عليه الجراح بن سنان يشتدّ
كأنّه الكلب وهو رافع عقيرته قائلاً:

« لقد أشركت يا حسن كما أشرك أبوك من قبل .. ».

ولم ينبر أحد من جيش الإمام إلى معاقبة هذا الأثيم، لقد انحرف هؤلاء الخونة عن الحق،
ومالوا عن الطريق القويم، فقد حكموا على ابن بنت نبيّهم وابن وصيّ الكفر والمروق من
الدين، فأبي ضلال مثل هذا الضلال؟.

٤. نهب أمتعة الإمام:

وعمد أولئك الأجلاف إلى نهب أمتعة الإمام فنزعوا منه بساطاً كان جالساً عليه، وسلبوا
منه رداءه، ولم تكن هناك أية حماية للإمام من جيشه، فقد جرت هذه العملية بمرأى ومسمع
منهم.

هذه بعض الأحداث المروعة التي عاناها الإمام عليه السلام في المدائن وهي تلزمه بالصلح والتخلي عن ذلك المجتمع المصاب بأخلاقه وعقيدته.

ضرورة الصلح:

أما صلح الإمام الحسن عليه السلام مع معاوية فقد كان ضرورياً حسب الأعراف السياسية، كما كان واجباً شرعياً مسؤول عن تنفيذه أمام الله والأمة، فانه لو فتح باب الحرب بجيشه المنهزم نفسياً لتغلب عليه معاوية بأول حملة، ولما أمكنه أن يحقق أي نصر، وفي تلك الحالة لا يخلو أمره من إحدى حالتين: إما القتل أو الأسر، فان قتل فلا تستفيد منه القضية الإسلامية لأن معاوية بما يملك من دبلوماسية مبطنة بالخداع والمكر والنفاق، سوف يلقي التبعة على الإمام في قتله، ويبرئ نفسه من أية مسؤولية، وأما إذا لم يقتل الامام، وحمل إلى معاوية أسيراً، فانه من دون شك سوف يعفو عنه، وبذلك يسجل له يداً بيضاء على الأسرة النبوية، ويمحو عنه وعن أسرته وصمة الطليق التي وصمهم بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وعلى أي حال فان الإمام الحسن عليه السلام قد اضطر إلى الصلح وأرغم عليه، ولم تكن هناك أية مندوحة للعدول عنه، وقد جرى الصلح حسب شروط ذكرناها بالتفصيل مع تحليلها في كتابنا (حياة الإمام الحسن عليه السلام) ومما لا شك فيه حسب المقاييس العلمية والسياسية ان الإمام أبا محمد قد انتصر في هذا الصلح، فقد أبرز حقيقة معاوية الجاهلية، وقد ظهرت خفايا نفسه، وما يكنه من حقد وعداء للإسلام وللمسلمين، فانه حينما استتب له الأمر عمد بشكل سافر إلى محاربة الإسلام والانتقام من أعلامه أمثال الصحابي العظيم حجر بن عدي، وأخلد بجرائمه للمسلمين المضاعف

والكوارث، وألقاهم في شرّ عظيم، وسوف نتحدّث عن ذلك في البحوث الآتية. وبعدهما انتهى الإمام أبو محمد من الصلح غادر الكوفة التي غدرت به وبأبيه لتستقبل جور معاوية وظلمه، وكان معه أهل بيته واخوته، ومن بينهم أخوه وعضده أبو الفضل العباس، وأخذوا يجدون السير لا يلوون على شيء حتى انتهوا إلى يثرب، وقد استقبلتهم بحفاوة بالغة البقية الباقية من الصحابة وأبنائهم، واستقرّ الإمام في يثرب، وقد التفّ حوله الفقهاء والعلماء فأخذ يغذّيهم بعلومه ومعارفه، ويغدق على البؤساء والمحرومين من فيض جوده وكرمه، وقد استعادت يثرب بوجوده ما فقدته من القيادة الروحية للمسلمين حينما غادرها وصي رسول الله ﷺ وباب مدينة علمه الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام. وعلى أيّ حال فقد شاهد أبو الفضل العباس عليه السلام ما جرى على أخيه الزكيّ أبي محمد عليّ عليه السلام من المحن الشاقة والعسيرة، ورأى غدر أهل الكوفة، وخيانتهم له، ونكثهم لبيعتهم له، وقد عرفته هذه الأوضاع السياسية والاجتماعية حقيقة المجتمع، وإن الغالبية الساحقة منه ينسابون وراء مصالحهم وليس للقيم الدينية أي أثر في نفوسهم، وبهذا تطوي الحديث عن بعض الأحداث المروعة التي شاهدها أبو الفضل العباس عليه السلام.

* * *

كابوس رهيپ

وتسلّم معاوية قيادة الدولة الإسلامية بعد صلحه مع الإمام الحسن عليه السلام ، وقد تحققت آماله الشريرة في القضاء على الدولة العلوية التي هي دولة المحرومين والمضطهدين، والتي كانت امتداداً ذاتياً لحكومة النبي صلى الله عليه وآله وتجسيدا حياً لأهدافه ومتطلباته الرامية لرفع مستوى الإنسان وتطوير حياته، وقد انهارت هذه القيم حينما سقطت الدولة الإسلامية صريعة بيده، فقد تبدلت المبادئ والقيم والأخلاق التي ينشدها الإسلام إلى عكسها، وخرج العالم الإسلامي من عالم الدعة والرخاء والاستقرار إلى كابوس مرعب تحقّه المحن والكوارث، وتحيمّ عليه العبودية والذل.

لقد تنكّر معاوية لجميع القيم والأعراف، وساس المسلمين سياسة لم يألفوها من قبل، ويرى المراقبون لسياسته ان انتصاره أنّما هو انتصاراً للوثنية بجميع مساوئها يقول السيد مير علي الهندي:

« ومع ارتقاء معاوية الخلافة في الشام عاد حكم الثوليارشية الوثنية السابقة، فاحتلّ موقع ديمقراطية الإسلام، وانتعشت الوثنية بكل ما يرافقها من خلاعات، وكأَنَّها بعثت من جديد، كما وجدت الرذيلة والتبذل الخلقى لنفسها متّسعاً في كل مكان ارتادته رايات حكام الأمويين من قادة جند

الشم .. « (١).

لقد تعرّض المسلمون في ذلك العهد الأسود إلى أزمات شاقة وعسيرة وامتحنوا كأشدّ ما يكون الامتحان، ونعرض . بإيجاز . إلى بعض ما عانوه من الكوارث.

إبادة القوى الواعية:

وعمد ابن هند إلى إبادة القوى الواعية في الإسلام، وتصفيتها جسدياً فقد ساق كوكبة منهم إلى ساحات الاعدام، وفيما يلي بعضهم:

١ . حجر بن عديّ:

حجر بن عدي الكندي علم من أعلام الإسلام، وبطل من أبطال الجهاد ومن أبرز طلائع المجد والفخر للأمة العربية والإسلامية، ومن النماذج المشرقة الذين تخرّجوا من مدرسة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ووعوا قيمه وأهدافه، وقد وهب هذا العملاق العظيم حياته لله فثار في وجه الإرهابي المجرم زياد بن أبيه حينما أعلن رسمياً سبّ الإمام أمير المؤمنين مفتح الفكر والنور في دنيا الإسلام، والمؤسس الثاني في بناء العقيدة الإسلامية بعد ابن عمّه وسيّده الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله.

لقد استحلّ الطاغية المجرم زياد دم المجاهد الكبير حجر بن عديّ حينما جابهه بالانكار على سبّه للإمام، فألقى عليه القبض، وبعثه مخفوراً مع كوكبة من أعلام المجاهدين في الإسلام إلى أخيه في الجريمة معاوية بن

(١) روح الاسلام: ٢٩٦.

هند، فصدرت الأوامر منه بإعدامهم في (مرجع عذراء) ونفذ الجلاّدون فيهم حكم الإعدام فخرّرت جثثهم الزواكي على الأرض وهي معطرة بدم الشهادة والكرامة، تضيء للناس معالم الطريق نحو حياة حرّة كريمة لا سيادة فيها للظالمين والمستبدّين.

٢. عمرو بن الحمق:

ومن شهداء الإسلام الخالدين عمرو بن الحمق الخزاعي الصحابي الجليل، كان أثيراً عند النبي ﷺ وقد دعا له بأن يمّعه الله بشبابه، فاستجاب الله دعاءه فقد أخذ عمرو بعنق الثمانين عاماً ولم ترّ في كرمته شعرة بيضاء^(١).

وقد وعى عمرو القيم الإسلامية وآمن بها إيماناً عميقاً، وجاهد في سبيلها كأعظم ما يكون الجهاد، ولما ولي الجلاّد زياد بن أبيه على الكوفة من قبل أخيه اللاشعري معاوية أو عز إلى مباحثه وجلالته بملاحقة عمرو ومطاردته لأنّه من أعلام شيعة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وفرّ عمرو مع زميله رفاعة بن شداد إلى الموصل، وقبل أن ينتهيا إليها كمنّا في جبل ليستجماً فيه، فشعرت بهما الشرطة المقيمة هناك، فارتابت منهما، فألقت القبض على عمرو، وفرّ صاحبه، وجاءت الشرطة بعمرو مخفوراً إلى عبد الرحمن الثقفي حاكم الموصل، فرفع أمره إلى معاوية، فأمر بطعنه تسع طعنات بمشاقص^(٢) فبادرت الجلاوزة إلى طعنه، فمات في الطعنة الأولى، واحتزّوا رأسه فأمر أن يطاف به في دمشق وهو أول رأس طيف به في

(١) الإصابة ٢: ٥٢٦.

(٢) المشاقص: جمع مفردة مشقص، النصل العريفي أو سهم فيه نصل عريض.

الإسلام، ثم أمر به ابن هند أن يحمل إلى زوجته السيِّدة آمنة بنت شريد، وكانت في سجنه، فلم تشعر إلاّ ورأس زوجها في حجرها فذعرت، وكادت أن تموت، ثم حملت إلى معاوية، وجرت بينها وبينه محاورة شديدة دلّت على مسخ معاوية وتجّره من جميع القيم الإنسانية، وقد ذكرنا تفصيل ذلك في كتابنا (حياة الإمام الحسن عايشاً) .

٣ . رشيد المهجري :

رشيد المهجري علم من أعلام الإسلام، وقطب من أقطاب الإيمان وقد أخلص كأشدّ ما يكون الإخلاص إلى وصيّ رسول الله ﷺ وباب مدينة علمه الإمام أمير المؤمنين عايشاً، وقد اعتقلته جلاوزة ابن زياد، وجاءت به مخفوراً إليه، فلما مثل عنده صاح به الباغي الأثيم:

« ما قال لك خليلك . يعني الامام عليّاً . إنّنا فاعلون بك؟ .. »

فأجابه بصدق وإيمان غير حافل به:

« تقطعون يدي ورجلي وتصلبونني .. » .

فأراد الخبيث الدنس أن يكذب الإمام فقال:

« أمّا والله لأكذبنّ حديثه حلّوا سبيله .. » .

فخلّت الجلاوزة سبيله لكنّه لم يلبث إلاّ قليلاً حتى ندم على ذلك فأمر بإحضاره فلمّا مثل عنده صاح به:

لا نجد شيئاً أصلح مما قال صاحبك: « إنّك لا تزال تبغي لنا سوءاً إن بقيت، اقطعوا

يديه ورجليه .. » .

وبادرت الجلاوزة فقطعت يديه ورجليه، ولم يحفل هذا العملاق العظيم بما كان يعانيه من

الآلام، وراح يذكر مساوئ بني أمية وجورهم

ويحفز الجماهير على الثورة عليهم، وأسرت الجلاوزة إلى زياد فأخبروه بالأمر فأمرهم بقطع لسانه، فقطع وتوفي في الحال هذا المجاهد العظيم^(١) الذي نافح عن عقيدته وولائه لأهل البيت حتى النفس الأخير من حياته.

هؤلاء بعض أعلام الإسلام الذين صقّاهم ابن هند جسدياً لأنهم كانوا ينشرون القيم الإسلامية، ويذيعون بين الناس فضائل أهل البيت: الذين هم مصدر الوعي والفكر في الإسلام.

مناهضة أهل البيت:

ولما استتب الأمر إلى معاوية سخر جميع أجهزة دولته ووسائل إعلامه لمناهضة أهل البيت الذين هم وديعة رسول الله ﷺ في أمته، والعصب الحساس في هذه الأمة، وقد استخدم هذا الذئب الجاهلي أخطر الوسائل في مناهضتهم، ومن بين ما قام به:

١ . افتعال الأخبار ضدّهم:

وأقام معاوية شبكة من عملائه لوضع الأخبار وافتعالها على لسان النبي ﷺ للحطّ من شأن أهل بيته، والتقليل من أهميتهم، وقد عمد الوضّاعون لافتعال الأخبار تارة في فضل الصحابة، لجعلهم قبال العترة الطاهرة، وقد عدّ الامام الأعظم محمد الباقر عليه السلام أكثر من مائة حديث افتعلت لهذا الغرض كما افتعلوا طائفة من الأخبار في ذمّ أهل البيت عليه السلام، كما وضعوا أحاديث أخرى في مدح الأمويين، وخلق الفضائل لهم، وهم

(١) سفينة البحار ١: ٥٢٢.

الذين ناجزوا الإسلام في جميع مراحل تأريخهم، ولم تقتصر الشبكة التخريبية على ذلك، وأما عمدت لافتعال الأخبار فيما يتعلّق بأحكام الشريعة الإسلامية، ومن المؤسف جداً أنّها دؤنت في الصحاح والسنن، وجعلت جزءاً من الشريعة الإسلامية، ولم يلتفت المؤلفون إلى وضعها، وقد تصدّى بعض المحقّقين إلى تأليف بعض الكتب، ذكروا فيها بعض الأخبار الموضوعية، فقد ألّف المحقّق السيوطي كتابه الشهير (اللغالي المصنوعة في الأخبار الموضوعية) ذكر فيه طائفة كبيرة من تلك الموضوعات، وقد سجّل المحقّق الأميني في (الغدير) أرقاماً لبعض الأخبار الموضوعية بلغت زهاء نصف مليون حديث، وعلى أي حال فإن من أعظم ما مُني به الإسلام من الكوارث هي الأخبار الموضوعية التي شوّمت الواقع المشرق للإسلام، وألقت المسلمين في شرّ عظيم، فقد حجبتهم عن أئمّة أهل البيت: وما أثر عنهم من الأخبار الصحيحة التي هي من ذخائر الإسلام.

٢ . سبّ الإمام أمير المؤمنين:

وأعلن معاوية رسمياً سبّ الإمام أمير المؤمنين، وأوعز إلى ولاته وعمّاله أن يذيعوا ذلك بين المسلمين، واعتبره عنصراً أساسياً في بناء دولته، وإقامة حكومته، وأخذ الأذنان والعملاء ووعاظ السلاطين يصعدون سبّ الإمام وينتقصونه لا في نواديهم الخاصة والعامة فحسب، وأتّما في خطب صلاة الجمعة، وسائر المناسبات الدينية، معتقدين أن ذلك مما يوجب القضاء على شخصية الإمام، واندثار ذكره، وقد خابت ظنونهم، وتبت أيديهم، فقد عادت اللعنات عليهم وعلى من ولاهم ومكنهم من

رقاب المسلمين، فقد برز الإمام أمير المؤمنين عليه السلام على مسرح التأريخ البشري كألمع قائد إنساني أسس معالم العدالة الاجتماعية، وأقام أركان الحق في الأرض.

لقد عاد الإمام في جميع الأعراف الدولية والسياسية أعظم حاكم ظهر في الشرق، وأول حاكم قد تبى حقوق المظلومين والمضطهدين، وأعلن حقوق الانسان، وأما خصومه الحقراء فهم أفزاق البشرية، وأشرار خلق الله، فقد جنوا على الإنسانية جناية لا تعدلها أية جناية، فقد حجبا هذا العملاق العظيم أن يقوم بدوره في بناء الحضارة الإنسانية، وتطوير الحياة العامة في جميع مجالاتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

٣ . استخدام معاهد التعليم:

واستخدم معاوية معاهد التعليم، وأجهزة الكتاتيب لتغذية النشء ببغض أهل البيت عليهم السلام الذين هم المركز الحساس في الإسلام، وغدّت هذه الأجهزة الناشئة المسلمة ببغض عترة النبي صلى الله عليه وآله وذريته، ولم يكن ذلك إلا إجراء مؤقتاً، فقد عكس الله إرادته، وخيب آماله، فها هو الإمام أمير المؤمنين ملء فم الدنيا، قد استوعب ذكره المعطر جميع لغات الأرض، وهو أنشودة الأحرار في كل زمان ومكان والكوكب اللامع في سماء الشرق يهتدي بضوئه المصلحون، ويسير على منهجه المتّقون، وها هو معاوية وبنو أمية قد صاروا جرثومة الفساد في الأرض، ولا يذكرون إلا مع الخسران وسوء المصير.

لقد هزم معاوية في الميدان السياسي والاجتماعي، وأبرزت مخططاته السياسية المناهضة لأهل البيت عليهم السلام واقعه النفسي الملوّث بالجرائم والآثام

واستبان للجميع أنه أحطّ حاكم ظهر في الشرق العربي والإسلامي.

إشاعة الظلم:

وأشاع معاوية الظلم والجور في جميع أنحاء العالم الإسلامي، فقد سلط على المسلمين ولاية إرهابيين، قد نزعت الرحمة من قلوبهم فأسرفوا باقتراف الجرائم والإساءة إلى الناس، وكان من أشدّهم قسوة، وأكثرهم جرماً الإرهابي زياد بن أبيه فقد صبّ على العراق وابلاً من العذاب الأليم، فكان يسوق المتهمين إلى ساحات الموت والإعدام من دون اجراء أي تحقيق معهم، فقد كان يحكم بالظنّة والتهمة، - كما أعلن ذلك في بعض خطبه - ولم يتحرّج من سفك الدماء بغير حقّ، ولم يتأتمّ في نشر الرعب والخوف بين الناس، فكان كأخيه اللاشعري معاوية قد انتهك جميع حرّمات الله.

لقد عدّت البلاد الإسلامية من الظلم والجور، حتى قال القائل: ان نجا سعد فقد هلك سعيد، وكان من أشدّ الناس بلاءً وأعظمهم محنة شيعة أهل البيت عليهم السلام فقد أمعنت السلطة في ظلمهم، والاعتداء عليهم فرجّت الكثير منهم في ظلمات السجون وزنانات التعذيب، وسلمت منهم الأعين، وأذاقتهم جميع صنوف التعذيب، لا لذنّب اقترفوه وأما لولائهم لأهل البيت عليهم السلام.

وقد شاهد أبو الفضل عليه السلام الصور المفجعة من الاضطهاد والتنكيل التي حلّت بشيعة أهل البيت، مما زاده ذلك إيماناً بضرورة الجهاد، والقيام بثورة ضدّ السلطة الأموية، لإنقاذ الأمة من محتتها، وإعادة الحياة الإسلامية بين المسلمين.

منح الخلافة ليزيد:

واقترف معاوية أخطر جريمة في الإسلام فقد منح الخلافة الإسلامية إلى ولده يزيد الذي كان . فيما أجمع عليه المؤرخون . مجرداً من جميع القيم الإنسانية، وغارقاً في الآثام والجرائم وكان جاهلياً بما تحمل هذه الكلمة من معنى، فلم يؤمن بالله ولا باليوم الآخر كما أعلن ذلك فيما أثر عنه من شعر، فقد قال حينما أشرفت سبايا آل النبي ﷺ على دمشق:

نعب الغراب فقلت صح أولاً تصح فلقد قضيت من النبي ديوني
نعم لقد استوفى ديون الأمويين من ابن فاتح مكة فقد قتل أبناءه وسبى ذراريه، وقال مرة أخرى:

لست من خندف إذ لم انتقم من بني أحمد ما كان فعل
هذا هو يزيد في الحاده ومروقه من الدين وقد سلّطه معاوية على رقاب المسلمين، فأمعن في إعادة الحياة الجاهلية، وإزالة الإسلام فكراً وعقيدة من الصعيد الاجتماعي، كما أخلد للمسلمين المحن والكوارث، وذلك بإبادته لعتره النبي ﷺ ، وسببه لذراريه.

إغتيال الشخصيات الإسلامية:

وأقدم معاوية على اغتيال الشخصيات الإسلامية التي لها مكانة مرموقة في العالم الإسلامي، والتي تحظى باحترام بالغ في نفوس المسلمين، حتى لا يزاحم أحد منهم ولده يزيد، ولا تتجه إليهم الأنظار،

وفعلًا قام باغتيال هؤلاء وهم:

١ . سعد بن أبي وقاص:

أما سعد بن أبي وقاص فهو فاتح العراق، وأحد أعضاء الشورى الذين رشحهم عمر إلى الخلافة الإسلامية، وقد ثقل وجوده على معاوية فُدسَّ إليه سمًّا فقتله ^(١).

٢ . عبد الرحمن بن خالد:

أما عبد الرحمن بن خالد فكان له رصيد شعبي في أوساط أهل الشام وقد استشارهم معاوية فيمن يعقد له البيعة بعد وفاته فأشاروا عليه بعبد الرحمن، فأسرَّها معاوية في نفسه، وأضمر له السوء، ومرض عبد الرحمن فأوعز معاوية إلى طبيب يهودي أن يعالجه ويسقيه سمًّا فسقاه السمَّ فمات على أثر ذلك ^(٢).

٣ . عبد الرحمن بن أبي بكر:

كان عبد الرحمن بن أبي بكر من أبرز العناصر المعارضة لمعاوية في أخذه البيعة ليزيد، وقد أعلن معارضته له، وأشيع ذلك في يثرب ودمشق، وقدم له معاوية رشوة لينال رضاه، وكانت مائة ألف درهم فأبى أن يقبلها، وقال: لا أبيع ديني بدنياي، وتعزو بعض المصادر أن معاوية دسَّ له سمًّا

(١) مقاتل الطالبين: ٢٩.

(٢) حياة الإمام الحسين ٢: ٢١٦.

فقتله (١).

٤ . الإمام الحسن:

وأقضى الإمام الحسن عليه السلام مضجع ابن هند، وراح يطيل التفكير للتخلص منه، لأنه قد شرط عليه في بنود الصلح أن ترجع إليه الخلافة بعد هلاكه واستعرض معاوية حاشية الامام وخاصته ليشتري ضمائرهم بأمواله لاغتيال الإمام، فلم يقع نظره على أحد سوى الخاتنة جعدة بنت الأشعث زوجة الإمام، فهي من أسرة لم تنجب شريفاً قط، ولم يؤمن أي فرد منها بالقيم الإنسانية، وأوعز معاوية إلى مروان بن الحكم عامله على يثرب فاتصل بها، وقدم لها الأموال، ومناها بزواج يزيد، فاستجابت نفسها الخبيثة لاقتراف الجريمة، فناولها سمّاً فاتكأ، فأخذته، ودسّته للإمام، وكان صائماً، ولما وصل إلى جوفه تقطعت أمعاؤه، فالتفت إلى الخبيثة، فقال لها:

« قتليني، قتلك الله، والله لا تصيبني مني خلفاً، لقد غرّك . يعني معاوية . وسخر منك، يخزيك الله ويخزيه .. ».

وأخذ سبط النبي صلى الله عليه وآله وربحانته يعاني آلاماً قاسية من شدة السم فقد تفاعل مع أجزاء بدنه، وقد ذبلت نضارته، واصفرّ لونه، وكان يلهج بذكر الله وتلاوة كتابه حتى ارتفعت روحه العظيمة إلى بارئها تحقها ملائكة الرحمن وأرواح الأنبياء.

لقد وافاه الأجل المحتوم، ونفسه العظيمة مترعة بالمصائب من ابن

(١) حياة الإمام الحسين ٢: ٢١٦.

هند الذي جهد في ظلمه، صبّ عليه ألواناً قاسية من المحن والكوارث فسلب منه الخلافة، وتتبع شيعة أبيه قتلاً وسجناً، واسمعه سبّه، وسبّ أبيه وأخيراً سقاه السمّ فقطع أحشاءه.

تجهيزه:

وقام سيّد الشهداء عليه السلام بتجهيز جثمان أخيه فغسل جسده الطاهر، وحمله المشيعون، وفي طليعتهم العلويون، وهم يذرفون أحمرّ الدموع على فقيدهم العظيم، وجاءوا به إلى المرقد النبوي ليواروه بجواره.

فتنة الأمويين:

ولما جيء بالجثمان المقدّس إلى قبر الرسول صلى الله عليه وآله ليوارى إلى جنبه ثار الأمويون وعلى رأسهم الوزغ ابن الوزغ مروان بن الحكم، فرفعوا أصواتهم أمام المشيعين « أيدفن الحسن بجوار جدّه، ويدفن عثمان بأقصى المدينة لا كان ذلك أبداً .. ». واشتدّوا كالكلاب نحو السيّدة عائشة، وقد عرفوا انحرافها عن أهل البيت فأثاروا حفيظتها قائلين:

« لئن دفن الحسن بجوار جدّه ليذهبنّ فخر أبيك، وصاحبه .. ».

فوثبت وهي مغیظة محنقة تشقّ الجماهير، وقد رفعت عقيرتها قائلة:

« لئن دفن الحسن بجوار جدّه . لتجز هذه . وأومات إلى ناصيتها .. ».

والتفتت إلى المشيعين قائلة:

« لا تدخلوا بيتي من لا أحبّ .. ».

وقد أعربت بذلك عن كوامن حقدّها على آل البيت عليهم السلام، ويتساءل

السائلون من أين جاء لها البيت، ألم يروا أبوها عن النبي ﷺ أنه قال:

« نحن معاشر الأنبياء لا نورث ذهباً ولا فضة » فبيت النبي - حسب هذه الرواية - كبيت من بيوت الله لا يملكه أحد، وإنما هو لجميع المسلمين، وعلى هذا فكيف سمحت لأبيها وصاحبه أن يدفنا فيه، وإذا لم تعمل عائشة بهذه الرواية وان النبي ﷺ كبقية الأنبياء يرثه ذريته، فالامام الحسن عليه السلام هو الذي يرثه لأنه سبطه، أما أزواج النبي ﷺ فلا يرثن من البيت، وإنما يرثن من البناء حسبما ذكر الفقهاء.

وعلى أي حال فقد تمادى الأمويون بالشر، وظهرت خفايا نفوسهم المنطوية على الحقد والعداء لآل البيت فقد أوعزوا إلى عملائهم برمي جنازة الإمام، فرموها بقسيهم وسهامهم، وكادت الحرب أن تقع بين الهاشميين والأمويين، فقد أسرع أبو الفضل العباس عليه السلام إلى مناجزة الأمويين، وتمزيقهم، فمنعه أخوه الامام الحسين عليه السلام من القيام بأي عمل امتثالاً لوصية أخيه، فقد أوصاه بأن لا يهراق في امره ملء محجمة من دم .. وجيء بالجثمان الطاهر إلى بقيع العرقد، فواروه فيه، وقد واروا معه الحلم والشرف والفضيلة، وقد انطوت بذلك أروع صفحة مشرقة من صفحات النبوة والإمامة.

لقد شاهد أبو الفضل العباس عليه السلام الأحداث المروعة التي حلت بأخيه الامام أبي محمد عليه السلام فزهده في الحياة، وكرهت له العيش، وحببت له الثورة والجهاد في سبيل الله.

معارضة الامام الحسين لمعاوية:

ولما تمادى معاوية في سياسته المتنوية المناهضة لمصالح المسلمين

والمعادية لأهدافهم، قام أبو الأحرار الإمام الحسين عليه السلام بالإنكار على معاوية، وأخذ يعمل بشكل مكثف إلى فضح معاوية، ويدعو المسلمين إلى الانتفاضة والثورة على حكومته، ونقلت أجهزة الأمن والمباحث في يثرب إلى معاوية هذه النشاطات السياسية المناهضة لحكومته ففزع من ذلك أشدّ الفزع، ورفع إليه مذكرة شديدة اللهجة يطلب فيها الكفّ عن معارضته، وهدّده باتخاذ الاجراءات القاسية ضدّه ان لم يستجب له، فأجابه أبو الأحرار بجواب شديد اللهجة وضعه فيه على طاولة التشريح، ونعى عليه سياسته الظالمة التي تفجّرت بكل ما خالف كتاب الله وسنة نبيّه، وندّد بما اقترفه من ظلم تجاه الأحرار والمصلحين أمثال ححر بن عدي وعمرو بن الحمق الخزاعي، ورشيد المجري، وغيرهم من أعلام الفكر في الوطن الإسلامي.

إنّ جواب الإمام أبي الشهداء من ألمع الوثائق السياسية، فقد وضع الإمام فيها النقاط على الحروف، وعرض بصورة مفصّلة الأحداث الرهيبة التي جرت أيام حكومة معاوية، كما حدّد فيها موقفه المتّسم بالثورة على حكومة معاوية ^(١).

مؤتمر الامام الحسين في مكّة:

وعقد الإمام أبو عبد الله الحسين عليه السلام مؤتمراً سياسياً في مكّة المكرمة حضره جمهور غفير من المهاجرين والأنصار والتابعين ممن شهدوا موسم الحج، فقام فيهم خطيباً، وتحدّث ببلغ بيانه عمّا ألمّ بهم وبشيعتهم من ضروب الخن والبلاء في عهد الطاغية معاوية، وقد روى سليم بن قيس

(١) نصّ الرسالة ذكرها ابن قتيبة في الإمامة والسياسة ١ / ١٨٩ والكشي في رجاله.

قطعة من خطابه جاء فيه بعد حمد الله والثناء عليه:

« أما بعد! فان هذا الطاغية . يعني معاوية . قد فعل بنا وبشييعتنا ما قد رأيتم وعلمتهم، وشهدتم، واتي أريد أن أسألکم عن شيء، فان صدقت فصدقوني وان كذبت فكذبوني، اسمعوا مقالتي، واكتبوا قولي، ثم ارجعوا إلى أمصاركم، وقبائلكم، فمن أمنتكم من الناس، ووثقتكم به فادعوهم إلى ما تعلمون من حقنا، فاني أتخوف أن يدرس هذا الأمر، ويغلب، والله متم نوره ولو كره الكافرون . »
ويقول سليم بن قيس: وما ترك الحسين شيئاً مما أنزله الله فيهم من القرآن إلا تلاه وفسره، ولا شيئاً مما قال رسول الله ﷺ في أبيه وأخيه، وفي نفسه وأهل بيته إلا رواه، وفي كل ذلك يقول أصحابه: اللهم نعم قد سمعنا وشهدنا، ويقول التابعي: اللهم قد حدثني به من أصدقائه، وأئمنه من الصحابة، فقال عليّ: أنشدكم الله إلا حدثتم به من تتقون به وبدينه .. «^(١) .
وكان هذا أول مؤتمر سياسي عرفه المسلمون في ذلك الوقت، فقد شجب فيه الامام سياسة معاوية الهادفة إلى حجب المسلمين عن أهل البيت ﷺ وستر فضائلهم، وقد دعا الإمام حضار ذلك المؤتمر إلى إشاعة مآثرهم، وإذاعة مناقبهم، وما ورد في حقهم من النبي ﷺ ليعرف المسلمون النوايا الشريرة التي يبنيها معاوية ضد أهل البيت الذين هم العصب في جسم الأمة الإسلامية .

هلاك معاوية:

واستقبل معاوية الموت، ونفسه قلقة ومضطربة مما اقترفه من

(١) حياة الإمام الحسين ٢: ٢٢٨ - ٢٢٩ .

الأحداث الجسام التي باعدت بينه وبين الله، فكان يقول متبرماً: ويلي من ابن الأديب . يعني حجر بن عدي . ان يومي منه لطويل، نعم ان يومه لطويل وان حسابه لعسير أمام الله لا في حجر فقط، وإنما لدماء المسلمين التي سفكها بغير حق، فقد قتل عشرات الآلاف من المسلمين، وأشاع في بيوتهم التكل والحزن والحداد، وهو الذي حارب دولة الإسلام، وأقام الدولة الأموية التي اتخذت مال الله دولاً، وعباد الله حولاً، وهو الذي سلط على المسلمين عصابة من أشرار خلق الله أمثال زياد بن أبيه الذي أمعن في إذلال المسلمين، وظلمهم بغير حق، وهو الذي استخلف من بعده ولده يزيد صاحب الأحداث والموبقات في الإسلام، وشبيهه جدّه أبي سفيان في اتجاهاته وميوله المعادية لله ولرسوله، وهو الذي دسّ السمّ إلى ریحانة رسول الله ﷺ وسبطه الإمام الزكي أبي محمد عليّ، وهو الذي أعلن سبّ أهل البيت: على المنابر، وجعل ذلك جزءاً من حياة المسلمين العقائدية إلى غير ذلك من الموبقات التي اقترفها والتي تجعل حسابه شاقاً وعسيراً أمام الله.

وعلى أيّ حال فقد هلك معاوية فأهون به هالكاً ومفقوداً فقد انكسر باب الجور، وتضعضت أركان الظلم، كما أثبتته بذلك الزعيم العراقي الكبير يزيد بن مسعود النهشلي، أما خليفته وولي عهده يزيد فلم يكن حاضراً عند وفاته، وإنما كان مشغولاً برحلات الصيد وعزيدات السكر ونعمة العيدان.

وبهذا ينتهي بنا الحديث عن حكومة معاوية التي هي أثقل كابوس مرّ على العالم الإسلامي في ذلك العصر، وقد شاهد سيّدنا أبو الفضل العباس عليّ المآسي الرهيبة التي دهمت المسلمين في ظلال هذا الحكم.

مَع الثَّوْرَةِ الحُسَيْنِيَّةِ

ورافق أبو الفضل العباس عليه السلام الثورة الإسلامية الكبرى التي فجّرها أخوه أبو الأحرار وسيّد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام، تلك الثورة العملاقة التي كانت من أهمّ الثورات العالمية، ومن أكثرها عطاءً لشعوب الأرض، فقد غيّرت مجرى التاريخ وهزّت العالم بأسره، وحرّرت الانسان المسلم، ودفعت القطعات الشعبية من المسلمين إلى التمرّد على الظلم، ومناهضة الجور والطغيان.

وقد ساهم قمر بني هاشم وفخر عدنان في هذه الثورة المباركة مساهمة إيجابية وفعّالة، وشارك أخاه الحسين في جميع فصولها، وقد وعى جميع أهدافها وما تنشده من خير ورحمة للشعوب المحرومة والمضطهدة، فأمن بها إيماناً مطلقاً.

لقد كان العباس أهمّ عضو بارز في هذه الثورة المشرقة، وقد لازم أخاه ممتثالاً لأمره، منقذاً لرغباته، شادداً لعضده، مؤمناً بقوله، مصدقاً لمبادئه، لم يفارقه في مسيرته الخالدة من يشرب إلى مكّة، ثم إلى أرض الكرامة والشهادة، ففي كل موقف من ثورة الإمام الحسين عليه السلام، كان العباس معه، وشريكاً له، .. وتحدّث - عن بعض الفصول التاريخية لهذه الثورة العظمية التي كان العباس العلم البارز فيها.

رفض الامام الحسين لبيعة يزيد:

وأعلن الإمام الحسين عليه السلام رسمياً رفضه الكامل لبيعة يزيد، وذلك حينما استدعاه حاكم المدينة الوليد بن عقبة في غلس الليل، وقد فهم الإمام ما أراد منه، فاستدعى عضده وأخاه أبا الفضل العباس وسائر الفتية من أهل بيته ليقوموا بحمايته، وأمرهم بالجلوس في خارج الدار فاذا سمعوا صوته قد علا فعليهم أن يقتحموا الدار لانتقاذه، ودخل الامام على الوليد فاستقبله بحفاوة وتكريم، ثم نعى إليه هلاك معاوية، وما أمره به يزيد من أخذ البيعة من أهل المدينة عامة ومن الحسين خاصة، فاستمهله الإمام حتى الصباح، ليجتمع الناس، وقد أراد أن يعلن أمامهم رفضه الكامل لبيعة يزيد، ويدعوهم إلى التمرد على حكومته، وكان مروان بن الحكم الذي هو من رؤوس المنافقين، ومن أعمدة الباطل حاضراً، فاندفع لاشعال نار الفتنة، فصاح بالوليد:

« لئن فارقت الساعة، ولم يبايع لا قدرت منه على مثلها أبداً حتى تكثر القتلى بينكم وبينه، أحبسه فان بايع، وإلا ضربت عنقه .. ».

ووثب أبي الضيم في وجه مروان، فقال محتقراً له:

« يا بن الزرقاء أنت تقتلني أم هو؟، كذبت والله ولؤمت .. ».

ثم التفت أبو الأحرار إلى الوليد فأخبره عن عزمه، وتصميمه في رفضه لبيعة يزيد قائلاً:

« أيها الأمير، إنا أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، ومحل الرحمة، بنا فتح الله، وبنا ختم، ويزيد رجل فاسق، شارب الخمر، قاتل النفس المحرمة، معلى بالفسق، ومثلي لا يبايع

مثله، ولكن نصبح وتصبحون، وننظر وتنظرون، أيّنا أحقّ بالخلافة والبيعة ..» (١).

لقد أعلن الإمام رفضه لبيعة يزيد في بيت الامارة ورواق السلطنة، وهو غير حافل بالحكم القائم، فقد وطن نفسه على التضحية والفداء لينقذ المسلمين من حكم إرهابي عنيف يستهدف إذلالهم، وإرغامهم على ما يكرهون.

لقد كان أبو الأحرار عالماً بفسق يزيد وفجوره ومروقه من الدين، ولو أقرّ لحكومته لساق المسلمين إلى الذلّ والعبودية، وعصف بالعقيدة الإسلامية في متاهات سحيقة من مجاهل هذه الحياة، ولكنّه سلام الله عليه صمد في وجه الاعاصير هائلاً من الحياة، ساخرّاً من الموت، فبنى للمسلمين عزّاً شامخاً، ومجداً رفيعاً، ورفع كلمة الإسلام عالية في الأرض.

إلى مكة المكرمة:

وصمّم أبو الأحرار على مغادرة يثرب، والتوجه إلى مكة المكرمة ليأخذ منها مقرّاً لبيتّ دعوته، ونشر أهداف ثورته، ويدعو المسلمين إلى الانتفاضة على الحكم الأموي الذي يمثل الجاهلية بجميع أبعادها الشريرة، وقبل أن يتوجّه إلى مكة خفّ إلى قبر جدّه صلى الله عليه وآله وهو حزين قد أحاطت به الأزمات فشكى إليه ما ألمّ به من المحن والبلوى، ثمّ توجه إلى قبر سيّدة النساء أمّه الزكيّة فألقى عليها نظرات الوداع الأخير، وزار بعد ذلك قبر أخيه الزكيّ أبي محمد عليه السلام ثمّ توجه مع جميع أفراد عائلته إلى مكة التي هي

(١) حياة الإمام الحسين ٢: ٢٥٥.

حرم الله ليعوذ بيئتها الحرام الذي فرض الله فيه الأمن لجميع عبادته، وكان أخوه أبو الفضل إلى جانبه قد نشر رأيه ترفرف على رأسه، وقد تولى جميع شؤونه وشؤون عائلته، وقام خير قيام بما يحتاجون إليه.

وسلك أبو الأحرار في مسيره الطريق العام فأشار عليه بعض من كان معه بأن يجيد عنه . كما فعل ابن الزبير . مخافة أن يدركه الطلب من السلطة فأجابه بكل شجاعة وثقة في النفس:

« لا والله ما فارقت هذا الطريق، أو أنظر إلى أبيات مكة حتى يقضي الله في ذلك ما يحبّ ويرضى .. ».

وانتهى ركب الإمام إلى مكة ليلة الجمعة لثلاث ليال مضين من شعبان وخطّ رحله في دار العباس بن عبد المطلب، وقد احتفى به المكيون خير احتفاء، وجعلوا يختلفون إليه بكرة وعشية، وهم يسألونه عن أحكام دينهم، وأحاديث نبيهم، كما توافد لزيارته القادمون إلى بيت الله الحرام من الحجاج والمعتمرين من سائر الآفاق، ولم يترك الإمام لحظة تمرّ من دون أن يبثّ الوعي الديني والسياسي في نفوس زائريه من المكّيين وغيرهم، ويدعوهم إلى التمرّد على الحكم الأموي الذي عمد على إذلالهم وعبوديتهم.

فزع السلطة بمكة:

وفزعت السلطة المحليّة بمكة من قدوم الإمام إليها، واتخاذها مقراً لدعوته، ومركزاً لإعلان ثورته، وكان حاكم مكة الطاغية عمرو بن سعيد الأشدق، فقد رأى بنفسه تزاحم المسلمين على الإمام، وسمع ما يقولونه ان الإمام أولى بالخلافة الإسلامية وأحقّ بها من آل أبي سفيان الذين لا

يرجون لله وقاراً، فحف مسرعاً نحو الإمام فقال له بغيظ:

« ما أقدمك إلى البيت الحرام؟! .. ».

وكان بيت الله العظيم ملك لبني أمية، وليس هو لجميع المسلمين، فأجابه الإمام بثقة

وهدوء:

« أنا عائد بالله، وبهذا البيت ... ».

ورفع الطاغية بالوقت رسالة إلى سيده يزيد بن معاوية أحاطه بها علماً بمجيء الامام إلى مكة، واختلاف الناس إليه، والتفافهم حوله، وان ذلك يشكّل خطراً على حكومته، ففرع يزيد كأشد ما يكون الفرع حينما قرأ رسالة الأشدق فرجع في الوقت مذكرة إلى ابن عباس يتهدّد فيها الحسين على تحركه، ويطلب منه التدخل فوراً لإصلاح الأمر وحجب الحسين عن مناهضته، فأجابه ابن عباس برسالة، نصحه فيها بعدم التعرّض للحسين، وانه انما هاجر إلى مكة فراراً من السلطة المحليّة في يثرب التي لم ترع مكانته، ومقامه.

ومكث الإمام ﷺ في مكة، والناس تختلف إليه، وتدعوه إلى إعلان الثورة على الأمويين، وكانت مباحث الأمن تراقبه أشد ما تكون المراقبة، وتسجّل جميع تحركاته ونشاطاته السياسية، وما يدور بينه وبين الوافدين عليه، وتبعث بجميع ذلك إلى دمشق لاطلاع يزيد عليه.

تحرك الشيعة في الكوفة:

وحينما أشيع هلاك معاوية في الكوفة أعلنت الشيعة أفراحها بموته وعقدوا مؤتمراً شعبياً في بيت أكبر زعمائهم، وهو سليمان بن صرد الخزاعي، واندفعوا إلى إعلان الخطب الحماسية فيها وقد عرضوا بصورة

شاملة إلى ما عانوه من الاضطهاد والتنكيل، في أيام معاوية، وأجمعوا على بيعه الإمام الحسين، ورفض بيعه يزيد، وأرسلوا في نفس الوقت وفداً منهم ليحثّ الإمام على القدوم إلى مصرهم لتشكيل حكومته ليعيد لهم الحياة الكريمة التي فقدوها في ظلال الحكم الأموي ويسيطر في بلادهم الأمن والرخاء، وترجع بلدهم عاصمة للدولة الإسلامية كما كانت أيام أبيه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وكان من بين ذلك الوفد عبد الله البجلي، وأخذ الوفد يسرع في سيره حتى انتهى إلى مكة، فعرض على الإمام مطالب أهل الكوفة، وألحوا عليه بالاسراع إلى القدوم إليهم.

رسائل الكوفة:

ولم يكتف الكوفيون بالوفد الذي بعثوه إلى الإمام، وأما عمدوا إلى إرسال آلاف الرسائل إليه أعربوا فيها عن عزمهم الجادّ على نصرته، والوقوف إلى جانبه، وأنهم يقدونه بأرواحهم وأموالهم، ويطلبون منه الإسراع إلى مصرهم ليشكّل فيه دولة القرآن والإسلام التي هي غاية آمالهم وحملوا الإمام المسؤولية أمام الله والتاريخ إن لم يستجب لدعوتهم. ورأى الإمام عليه السلام أنه قد قامت عليه الحجة الشرعية، وان الواجب يحتم عليه إجابتهم.

إيفاد مسلم إلى الكوفة:

ولما تابعت الوفود والرسائل من أهل الكوفة على الإمام، وهي تحثّه على القدوم إليهم، لم يجد بُدّاً من إجابتهم، فأوفد إليهم ثقتهم وكبير أهل بيته، والمبرز من بينهم بالفضيلة وتقوى الله ابن عمّه مسلم بن عقيل،

وكانت مهمته خاصة ومحدودة، وهي الوقوف على واقع الكوفيين، ومعرفة أمرهم، فان صدقوا فيما قالوا توجه الإمام إليهم وأقام في مصرهم دولة القرآن.

ومضى مسلم يجد في السير لا يلوي على شيء حتى انتهى إلى الكوفة فنزل في بيت زعيم من زعماء الشيعة، وسيف من سيوفهم، وهو المختار بن أبي عبيدة الثقفي، الذي كان يتمتع بخبرة سياسية واسعة، وشجاعة فائقة، ودراية تامة بالشؤون النفسية والاجتماعية، وقد فتح المختار أبواب داره إلى مسلم، وصار بيته مركزاً للسفارة الحسينية. ولما علمت الشيعة بقدوم مسلم سارعوا إليه مرحبين به، ومقدمين له جميع ألوان الحفاوة والدعم، والتفوا حوله، طالبين منه أن يأخذ منهم البيعة للإمام الحسين عليه السلام، واستجاب لهم مسلم ففتح سجلاً للمبايعين وقد أحصى عددهم في الأيام القليلة بما يزيد على ثمانية عشر ألفاً، وفي كل يوم يزداد عدد المبايعين منهم، وألحوا عليه أن يرسل الإمام بالإسراع إلى القدوم إليهم ليتولى قيادة الأمة،.. ومن الجدير بالذكر أن السلطة المحلية في الكوفة كانت على علم بمجريات الثورة، وقد وقفت منها موقف الصمت، فلم تتخذ أي اجراءات ضدها، ويعود السبب في ذلك إلى ان حاكم الكوفة النعمان بن بشير الأنصاري كان من المنحرفين عن يزيد بسبب مواقفه المعادية للأنصار، ومضافاً إلى ذلك فان ابنته كانت زوجة المختار الذي استضاف مسلماً ووقف إلى جانبه.

ومن الطبيعي أنه لم يرق لعملاء الأمويين وأذنابهم موقف النعمان المتسم بالليونة وعدم المبالاة بالثورة، فبادروا إلى الاتصال بدمشق، وعرفوا يزيد بموقف النعمان، وطلبوا المبادرة بإقصائه، وتعيين حاكماً حازماً

يستطيع القضاء على الثورة، وإخضاع الجماهير إلى حكمه، وفتح يزيد من الأمر، فأرسل إلى مستشاره الخاص سرجون، وكان دبلوماسياً محتكاً، فعرض عليه ما ألمّ به وطلب منه أن يرشده إلى حاكم يتمكن من السيطرة على الأوضاع المتفجرة في الكوفة، فأشار عليه بتوليّه الإرهابي عبيدالله بن زياد فأنه شبيهه بأبيه في التجرد من كلّ نزعة إنسانية، وعدم المبالاة في اقتراح أبشع الجرائم، فاستجاب يزيد لرأيه، وكتب لابن زياد مرسوماً بولايته على الكوفة بعد أن كان والياً على البصرة فقط، وبذلك فقد أصبح العراق كلّه خاضعاً لسيطرته، وأصدر إليه الأوامر المشددة بالإسراع إلى الكوفة لاستئصال الثورة، والقضاء على مسلم.

سفر ابن زياد إلى الكوفة:

وحيثما تسلّم ابن زياد المرسوم في ولايته على الكوفة توجه إليها فوراً، وأخذ يجد في السير لا يلوي على شيء مخافة أن يسبقه إليها الإمام الحسين عليه السلام، وحينما أشرف على الكوفة غير ملابسه، وليس ثياباً بمانية وعمامة سوداء ليوهم على الكوفيين أنه الامام الحسين، وقد اعتقدوا بذلك فأحاطوا به مرحين بقدمه، وهاتفين بحياته، فاستاء ابن زياد من ذلك كأشدّ ما يكون الاستياء، وأسرع في سيره مخافة أن ينكشف أمره، فيقتل، ولما انتهى إلى قصر الامارة، وجد الباب مغلقاً فطرقه فأشرف عليه النعمان، وقد توهم أنه الامام الحسين عليه السلام فانبرى يخاطبه بلطف قائلاً:

« ما أنا بمؤدّ إليك أمانتي يا بن رسول الله، وما لي في قتالك من ارب » ..

فصاح به ابن مرجانة:

« افتح لا فتحت فقد طال ليلك .. ».

وعرفه بعض من كان خلفه فصاح بالجماهير:

« أنه ابن مرجانة، وربّ الكعبة .. ».

وكان ذلك الصاعقة على رؤوسهم فولّوا منهزمين إلى دورهم، وقد ملئت قلوبهم خوفاً ورعباً، وبادر الطاغية نحو القصر فاستولى على المال والسلاح، وأحاط به عملاء الأمويين أمثال عمر بن سعد وشمّر بن ذي الجوشن، ومحمد بن الأشعث وغيرهم من وجوه الكوفة فجعلوا يحدّثونه عن الثورة، ويعرفونه بأعضائها البارزين، ويضعون معه المخططات الرهيبة للقضاء عليها.

ولما أصبح الصبح جمع ابن مرجانة الناس في المسجد الأعظم، فأعلمهم بولايته على مصرهم، ومثّى أهل الطاعة بالصلة، وأهل المعصية بالعقاب الصارم ثم عمد إلى نشر الخوف والإرهاب بين الناس، وقد أمسك جماعة لم يجر معهم أي تحقيق فأمر بإعدامهم، وملاً السجون بالمعتقلين، واتخذ من ذلك وسيلة للسيطرة على البلاد.

ولما علم مسلم بقدوم ابن مرجانة، وما قام به من الأعمال الإرهابية تحوّل من دار المختار إلى دار الزعيم الكبير هانئ بن عروة، وهو سيّد الكوفة، وزعيمها المطاع، وقد عرف بالولاء والمودّة لأهل البيت عليهم السلام، وقد استقبله هانئ بحفاوة وتكريم، ورحّب به كأعظم ما يكون الترحيب وفتح داره على مصراعيها لشيعة مسلم، واتخاذ القرارات لدعم الثورة، ومناهضة خصومها.

المخططات الرهيبة:

واتخذ ابن مرجانة سلسلة من المخططات أدّت إلى نجاحه في الميادين السياسية، والتغلّب على الأحداث، فبعد أن كانت الكوفة تحت

قبضة مسلم انقلبت رأساً على عقب، وصارت مع ابن زياد، ومن بين تلك المخططات التي تمّ تنفيذها ما يلي:

التجنّس على مسلم:

وأول بادرة سلكها ابن مرجانة هي التجنّس على مسلم، ومعرفة نشاطاته السياسية، والاحاطة بنقاط الضعف والقوة عنده والوقوف على جميع ما يجري عنده من الأحداث، وقد اختار للقيام بهذه المهمة مولاه معقلاً، وكان فطناً ذكياً ذا معرفة بالسياسة الماكرة، وأعطاه ثلاثة آلاف درهم، وأمره بالاتصال بأعضاء الثورة، وإعلامهم بأنه من الموالي الذين عرف أكثرهم بالولاء لأهل البيت عليهم السلام، وانه قد جاء إلى مصرهم حينما بلغه أن داعية الإمام الحسين عليه السلام قدم إليهم ليأخذ البيعة منهم له، وان عنده مالاً ليوصله له ليستعين به على حرب عدوّه.

ومضى معقل في مهمته، وجعل يفتّش عن له معرفة بسفير الحسين فأرشد إلى مسلم بن عوسجة وهو من أعلام الشيعة، وأحد القادة الطليعيين في الثورة، فاتصل به، وأظهر له الولاء المزيف لأهل البيت، والتعطّش الكاذب لرؤية سفيرهم مسلم، فانخدع ابن عوسجة بكلامه، وعزّه تلهّفه المصطنع لرؤية داعية الحسين، فأدخله على مسلم فبايعه، وأخذ المال منه، وجعل يتردّد عليه في كل يوم فكان - فيما يقول المؤرّخون أوّل داخل عليه، وآخر خارج عنه، وقد وقف على جميع شؤون الثورة، وعرف أعضائها، والمتحمّسين لها وما يستجدّ فيها من شؤون، وكان ينقل ذلك حرفياً إلى سيّده ابن مرجانة وبذلك فقد أحاط بجميع مجريات الأحداث، ولم يخف عليه أي شيء منها.

اعتقال هانئ:

وقدم ابن زياد على أخطر عملية كُتِبَ له فيها النجاح لتنفيذ مخططاته، فقد قام باعتقال هانئ بن عروة سيد الكوفة، والزعيم الأوحَد لقبائل مذحج التي كانت تشكّل الأكثرية الساحقة من سكّان الكوفة، وقد أشاع بذلك موجة من الخوف والإرهاب عند جميع الكوفيين، كما وجّه ضربة قاسية ومدمّرة للثورة فقد استولى الرعب والفرع على انصار مسلم، ومنوا بهزيمة نفسية ساحقة وعلى أي حال فإن هانئ حينما مثل أمام الطاغية استقبله بشراسة وعنف وطلب منه بالفور تسليم ضيفه الكبير مسلم، فأنكر هانئ أن يكون عنده لأنّه أحاط أمره بكثير من السرية والكتمان، فأمر ابن زياد بإحضار الجاسوس معقل، فلما حضر سقط ما في يد هانئ وأطرق برأسه إلى الأرض. ولكن سرعان ما سيطرت شجاعته على الموقف، فانتفض كالأسد ساخراً من ابن زياد ومتمرداً على سلطته، فامتنع كأشدّ ما يكون الامتناع من تسليم ضيفه إليه لأنّه بذلك يسجّل عاراً وخزياً عليه، فثار الطاغية في وجهه، وثم أمر غلامه مهران أن يدينه منه، فأدناه، فاستعرض وجهه المكرم بالقضيب، وضربه ضرباً عنيفاً حتى كسر أنفه، ونثر لحم خديّه وجنبه على لحيته حتى تحطّم القضيب، وسالت الدماء على ثيابه، ثم أمر باعتقاله في أحد بيوت القصر.

انتفاضة مذحج:

ولما شاع اعتقال هانئ اندفعت قبائل مذحج نحو قصر الامارة، وقد قاد مجموعها الانتهازي القدر عمرو بن الحجاج، وهو من أذئاب السلطة

ومن أحقر عملائها، وقد رفع عقيرته ليسمعه ابن زياد قائلاً:
« أنا عمرو بن الحجاج، وهذه فرسان مذحج، ووجهها لم نخلع طاعة، ولم نفارق جماعة .. »

وحفل كلامه بالخنوع والمسالمة للسلطة، وليس فيه أي اندفاع لإنقاذ هانئ، وأما فيه التأييد والدعم لابن زياد، ولذا لم يكثر به، وأوعز إلى شريح القاضي، وهو من وعاظ السلاطين، ومن دعائم الحكم الأموي فأمره أن يدخل على هانئ، ويخرج لهم، ويخبرهم بأنه حيّ سالم وأنه يأمرهم بالانصراف إلى منازلهم، ودخل على هانئ فلما بصر به صاح مستجيراً:

« يا للمسلمين أهلكت عشيرتي!! أين أهل الدين، أين أهل المصر، أيجلونني وعدوهم .. »

والتفت إلى شريح، وقد سمع أصوات أسرته قائلاً:
« يا شريح ابني لأظنّها أصوات مذحج وشيعتي من المسلمين، انه إن دخل عليّ عشرة نفر أنقدوني .. »

وخرج شريح الذي باع آخرته وضميره على ابن مرجانة، فقال لمذحج:
« نظرت إلى صاحبكم، انه حي لم يقتل .. »
وبادر ابن الحجاج عميل الأمويين وخادمهم فرفع صوته لتسمعه مذحج قائلاً:
« إذا لم يقتل فالحمد لله .. »

وولت قبائل مذحج منهزمة كأنما أتيح لها الخلاص من سجن، وقد صحبت معها الخيانة والخزي، ومن المؤكّد أن هزيمة مذحج بهذه السرعة كانت نتيجة اتفاق سرّي بين زعمائها وبين ابن مرجانة للقضاء على هانئ،

ولولا ذلك لهجمت على السجن وأخرجته.

لقد تنكرت مذحج لزعيمها الكبير الذي كان محسناً عليها فلم تف بحقوقه، وتركته أسيراً بيد الإرهابي ابن مرجانة، وهو يمعن في إذلاله وقهره، في حين أن مذحج كانت لهم السيادة على الكوفة.

ثورة مسلم:

ولما علم مسلم ما جرى على هانئ العضو البارز في الثورة من الاعتداء والاعتقال، بادر إلى اعلان الثورة على ابن زياد، فأوعز إلى أحد قادة جيشه عبد الله بن حازم أن ينادي في أصحابه، وقد ملأ بهم الدور، فاجتمع إليه زهاء أربعة آلاف مقاتل أو أربعون ألفاً، كما في رواية أخرى، وتعالى أصواتهم بشعار المسلمين يوم بدر « يا منصور أمت .. ».

وقام مسلم بتنظيم جيشه فاسند القيادات العامة إلى من عرفوا بالولاء والإخلاص لأهل البيت عليهم السلام، وزحف بجيشه نحو قصر الإمارة، وكان ابن زياد قد خرج إلى الجامع، وقد ألقى خطاباً على الجماهير تهدّد فيه على كل من يخلع يد الطاعة، ويناهض الدولة، وحينما أنهى خطابه سمع الضجّة وأصوات الثوّار وهتافاتهم بسقوطه فهاله ذلك، وسأل عن السبب فأخبر أن مسلم بن عقيل قد أقبل في جمهور من شيعته لحربه، ففزع الجبان، واختطف الرعب لونه، وأسرع نحو القصر يلهث كالكلب من شدّة الفزع والخوف وضافت عليه الدنيا إذ لم تكن عنده قوة عسكرية تحميه سوى ثلاثين شرطياً وعشرين رجلاً من أشرف الكوفة الذين عرفوا بالعمالة للأمويين.

وتضاعف جيش مسلم، وقد نشروا الاعلام والسيوف، ودقّت طبول

الحرب، وأيقن الطاغية بالهلاك إذ لم يكن يأوي إلى ركن شديد.

حرب الأعصاب:

وأمعن الطاغية في أقرب الوسائل، وأكثرها ضماناً لإنقاذه فرأى أن لا طريق له سوى حرب الأعصاب، ونشر الدعايات الكاذبة، وكان عالماً بتأثيرها على نفوس الكوفيين، فأوعز إلى عملائه من أشرف الكوفة ووجهها أن يندسوا بين صفوف جيش مسلم، فيذيعون الإرهاب، وينشرون الخوف، وانطلق العملاء بين قطعات جيش مسلم، فأخذوا يبتنون الأراجيف والكذب، وتناولت دعاياتهم ما يلي:

أ. تهديد أصحاب مسلم بجيوش أهل الشام، وأنّها سوف تنكل بهم إن بقوا مصرين على متابعة مسلم.

ب. ان الحكومة سوف تقطع مرتباتهم وتحرمهم من جميع مواردهم الاقتصادية.

ج. إن الدولة ستزجّ بهم في مغازي أهل الشام.

د. إن الحكومة ستعلن فيهم الأحكام العرفية، وتسوسهم بسياسة زياد بن أبيه التي تحمل اشارات الموت والدمار.

وكانت هذه الاشاعات كالقنابل على رؤوسهم، فقد انحارت أعصابهم واضطربت قلوبهم، وجبنوا كأبشع ما يكون الجبن، وولّوا منهزمين على أعقابهم، وهم يقولون:

« ما لنا والدخول بين السلاطين .. ».

ولم يمض قليل من الوقت حتى فرّ معظمهم، وبقي ابن عقيل مع جماعة قليلة وقصد بهم نحو الجامع الأعظم ليؤدّي صلاة العشاءين، ففرّوا

منهزمين في أثناء الصلاة، فقد قذف في قلوبهم الرعب، وسرت فيهم أوبئة الخوف، وما أضحى ابن عقيل صلاته حتى انهزموا جميعاً ولم يبق معه إنسان يدلّه على الطريق أو يأويه، وقد لبس الكوفيون بذلك ثياب العار والخزي، وأثبتوا أن ولاءهم لأهل البيت: كان عاطفياً، وغير مستقرّ في دخائل قلوبهم، وأعماق نفوسهم وأنهم لا ذمّة ولا وفاء لهم.

وسار مسلم فخر بني هاشم متلذداً في أزقة الكوفة، وشوارعها يلتبس فيها داراً لينفق فيه بقية الليل، فلم يظفر بذلك، فقد حلت المدينة من المارة، كأنما أعلن فيها منع التجول، فقد أغلق الكوفيون عليهم الأبواب مخافة أن تعرفهم مباحث الأمن، وعيون ابن زياد بأهم كانوا مع ابن عقيل فتلقى عليهم القبض، وتعرضهم للتكيد وسوء العذاب.

في ضيافة طوعة:

وبقي ابن عقيل حائراً لا يدري إلى ابن مأواه وملجئه، فقد أحاطت به تيارات من الهموم، وكاد قلبه أن ينفجر من شدة الألم العاصف واستبان له أنه ليس في المصر رجل شريف يقوم بضيافته وحمائته، ومضى متلذداً في أزقة الكوفة، وانهى به السير إلى سيّدة كريهة، يقال لها طوعة هي سيّدة من في المصر بما تملكه من إنسانية وشرف ونبل، وكانت واقفة على باب دارها تنتظر قدوم ابنها، وهي فرعة عليه، من الأحداث الرهيبة التي مُني بها المصر، ولما رآها مسلم بادر نحوها فسلم عليها، فردّت عليه، ووقف مسلم، فأسرعت قائلة:

« ما حاجتك؟ .. ».

« اسقيني ماءً .. ».

وبادرت السيدة فجاءته بالماء فشرب منه، ثم جلس فارتابت منه فقالت له:
« ألم تشرب الماء؟ .. ».

« بلى .. ».

« اذهب إلى أهلك ان مجلسك مجلس ريبة .. ».

وسكت مسلم فأعادت عليه القول، وطلبت منه الانصراف من باب دارها ومسلم
ساكت، فدعرت منه، وصاحت به:

« سبحان الله!! إني لا أحلّ لك الجلوس على باي .. ».

ولما حرّمت عليه الجلوس نهض، وقال لها بصوت خافت حزين النبرات:

« ليس لي في هذا المصر منزل ولا عشيرة، فهل لك إلي أجر ومعروف أن تقومي بضيافتي
في هذه الليلة، ولعلّي أكافئك بعد هذا اليوم .. ».

وشعرت المرأة بأن الرجل غريب، وأنه ذو شأن كبير، ومكانه عظيم، وأنه سيقوم
بمكافئتها إن أسدت عليه إحساناً ومعروفاً فبادرته قائلة:

« ما ذاك يا عبد الله؟! »

فقال لها وعيناه تفيضان دموعاً:

« أنا مسلم بن عقيل كذّبي القوم وغروني .. ».

فذهلت السيدة، وقالت في دهشة وإكبار:

« انت مسلم بن عقيل؟! .. ».

« نعم .. ».

وسمحت السيدة بخضوع وإكبار لضيفها الكبير بتشريف منزلها وقد

حازت المجد والشرف بذلك، فقد آوت سليل هاشم وسفير ربحانة رسول الله ﷺ، وتحملت المسؤولية من السلطة بضيافتها له.

وأدخلت السيّدة ضيفها العظيم في بيت غير البيت الذي كانت تأوي إليه، وجاءته بالضيء والطعام، فأبى أن يأكل، فقد مزّق الأسي قلبه الشريف، وأيقن بالرزء القاصم، وتمثّلت أمامه الأحداث التي سيواجهها، وقد شغل فكره الإمام الحسين عليه السلام الذي كتب إليه بالقدوم إلى الكوفة وأنه سيلاقي ما لاقاه.

ولم يمض قليل من الوقت حتى قدم بلال ابن السيدة طوعة، فرأى أمه تكثر من الدخول والخروج إلى البيت الذي فيه مسلم لتقوم بخدماته ورعايته، فأنكر عليها ذلك، وسألها عن السبب فأبت أن تخبره، فألحّ عليها، فأخبرته بالأمر بعد أن أخذت عليه الأيمان والمواثيق بالكتمان، وطارت نفس الحبيث فرحاً وسروراً، وأنفق ليله ساهراً يترقب بفارغ الصبر انبثاق نور الفجر ليخبر السلطة بمقام مسلم عندهم ليتزلف بذلك إليها، وينال الجائزة منها، وقد تنكّر هذا الوغد لجميع الأعراف، والأخلاق العربية التي تلزم بقرى الضيف، وحمائته من كل مكروه، وكانت هذه الظاهره سائدة حتى في العصر الجاهلي، وقد دلّ ما فعله هذا الجلف على انهيار القيم الأخلاقية والانسانية ليس عنده فحسب، وأنما في أغلبية ذلك المجتمع الذي فقد جميع ما يسمو به الإنسان من القيم الكريمة.

وعلى أيّ حال فقد قضى سليل هاشم ليله حزيناً قلقاً مضطرباً، وقد خلص في معظم الليل إلى العبادة ما بين الصلاة وقراءة القرآن، فقد أيقن أن تلك الليلة هي آخر آيام حياته، وقد خفق في بعض الليل فرأى عمّه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في منامه فأخبره بسرعة اللحاق به، فعند ذلك أيقن بدنوّه

الأجل المحتوم منه.

الإفشاء بمسلم:

ولما انبثق نور الصبح بادر بلال إلى قصر الإمارة ليخبر السلطة بمكان مسلم عنده، وكان الخبيث بحالة من الدهشة تلفت النظر، فقصد عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث وهو من الأسرة الانتهازية الخبيثة التي طلقت الشرف والمعروف ثلاثاً، فأسره بالأمر، فأمره بالسكوت لئلا يسمعه غيره فيخبر ابن زياد فينال منه الجائزة، وأسرع عبدالرحمن إلى أبيه محمد فأخبره بالأمر الخطير، وبدت سحنات الفرح والسرور على وجهه، وفطن ابن مرجانة إلى أن هناك أمراً عظيماً يخصّ السلطة فبادر قائلاً:

« ما قال لك: عبد الرحمن؟! .. ».

فقال وقد ملأ الفرح اهابه:

« أصلح الله الأمير البشارة العظمى ... ».

« ما ذاك؟ مثلك من بشر بخير ... ».

« إن إبني هذا يخبرني أن مسلماً في دار طوعة ... ».

وطار ابن زياد من الفرح والسرور فقد تمت بوارق آماله وأحلامه، فقد ظفر بسليل هاشم ليقدمه قرباناً لأمويته اللصيقة، وأخذ يمضي ابن الأشعث بالمال والجاه المزيّف، قائلاً له:

« قم فأتني به، ولك ما أردت من الجائزة والحظّ الأوفى ... ».

وسال لعاب ابن الأشعث فاندفع وراء أطماعه الدنيئة لإلقاء القبض على مسلم.

الهجوم على مسلم:

ونذب ابن مرجانة لحرب مسلم، محمد بن الأشعث، وعمرو بن حريث المخزومي وضّم إليهما ثلاثمائة رجل من فرسان الكوفة، وأقبلت تلك الوحوش الكاسرة التي لا عهد لها بالشرف والمروءة إلى حرب مسلم الذي أراد أن يحررهم من الذلّ والعبودية، وينقذهم من ظلم الأمويين وجورهم.

ولما قربت الجيوش من دار طوعة علم مسلم أنها قد أتت لحربه، فسارع إلى فرسه فأسرجه وألجمه، وصبّ عليه درعه، وتقلّد سيفه، والتفت إلى السيّدة الكريمة طوعة فشكرها على حسن ضيافتها، وأخبرها أنه أمّا أُوتِي إليه من قبل ابنها الباغي اللئيم.

واقترح الجيش الدار على مسلم فشدّ عليهم كالليث يضرهم بسيفه ففرّوا منهزمين من بين يديه يطاردهم الرعب والخوف، وبعد فترة عادوا إليه فحمل عليهم، وأخرجهم من الدار، وانطلق نحوهم فجعل يحصد رؤوسهم بسيفه، وقد أبدى من البطولات النادرة ما لم يشاهد مثله في جميع فترات التاريخ، فقد قتل منهم . فيما يقول بعض المؤرّخين . واحداً وأربعين، عدا الجرحى، وكان من قوته النادرة، وعظيم بأسه أن يأخذ الرجل منهم بيده، ويرمي به فوق البيت كأنّه حجر، ومن المؤكّد أنّه ليس في تاريخ الإنسانية مثل هذه البطولة، ولا مثل هذه القوة، وليس ذلك غريباً عليه، فعّمه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أشجع الناس، وأقواهم بأساً وأشدهم عزيمّة.

وجعل أنذال أهل الكوفة يرمون مسلماً بالحجارة وقذائف النار من

فوق سطوح بيوتهم، ومما لا ريب فيه أن الحرب لو كانت في البيداء لأتى عليهم مسلم، ولكنها كانت في الأزقة والشوارع، ومع ذلك فقد فشلت جيوش أنزال أهل الكوفة، وعجزت عن مقاومة البطل العظيم، فقد أشاع فيه القتل والدمار، وأسرع ابن الأشعث بالطلب إلى سيده ابن مرجانة ليمدّه بالخييل والرجال، لأنّه لا يقوى على مقاومة هذا البطل العظيم، وبهر الطاغية، وأخذ يندد بقيادة ابن الأشعث قائلاً:

« سبحان الله!! بعثناك إلى رجل واحد تأتينا به فتلم في أصحابك هذه الثلثة العظيمة

... ».

وثقل على ابن الأشعث هذا التقرّيع، فراح يشيد ببطولات ابن عقيل قائلاً:
« أتظنّ أنّك أرسلتني إلى بقّال من بقّالي الكوفة، أو جرمقاني من جرامقة الحيرة وأتّما بعثتني إلى أسد ضرغام، وسيف حسام في كفّ بطل همّام من آل خير الأنام ». وأمدّه ابن زياد بقوة مكثفة من الجيش، فجعل بطل الإسلام وفخر عدنان يقاتلهم أشدّ القتال وأعنفه وهو يرتجز:

أقسّمت لا أقْتل إلاّ حرّاً وإن رأيت الموت شبيهاً نكرا
أو يخلط البارد سخناً مرّاً ردّ شعاع الشمس فاستقرا
كلّ امرئ يوماً يلاقي شرّاً أحصاف أن أكذب أو أغرا
أما أنت يا بن عقيل فكنت سيّد الأباة والأحرار فقد رفعت لواء العزّة والكرامة، ورفعت شعار الحرية، وأما خصومك فهم العبيد الذي رضوا بالذلّ والهوان، وخضعوا للعبودية والذلّ، لقد أردت أن تحرّهم، وتعيد لهم الحياة الحرّة الكريمة، فأبوا ذلك، وعدوا عليك يقاتلونك، وقد فقدوا بذلك إنسانيتهم، ومقومات حياتهم.

ولما سمع ابن الأشعث رجز مسلم الذي أقسم فيه على أن يموت ميتة الأحرار والأشراف انبرى إليه ليخدعه قائلاً:

« إنك لا تكذب، ولا تخدع، إن القوم بنو عمك وليسوا بقاتليك، ولا ضارئك .. ». فلم يخفل مسلم بأكاذيب ابن الأشعث، وراح يقاتلهم أعنف القتال وأشدّه، ففروا منهزمين من بين يديه، وهو يحصد رؤوسهم، وجعلوا يرمونه بالحجارة، فأنكر عليهم مسلم ذلك وصاح بهم:

« ويلكم ما لكم ترمونني بالحجارة، كما تُرمى الكفار، وأنا من أهل بيت الأبرار، ويلكم أما ترعون حقّ رسول الله ﷺ، وذريته .. ». «

إن هؤلاء الأجلاف قد فقدوا جميع القيم والأعراف، فلم يراعوا آية حرمة لرسول الله ﷺ الذي حرّهم من حياة التيه في الصحراء وأقام لهم حضارة لم تعهد لها الأمم والشعوب، فكان جزاؤه منهم أن عدوا على أبنائه وذريته فأوسعهم قتلاً وتنكيلاً.

وعلى أي حال فان جيوش ابن زياد لم تستطع مقاومة البطل العظيم وبان عليهم الانكسار، وضاق بابن الأشعث أمره، فدنا من مسلم ورفع عقيرته قائلاً:

« يا بن عقيل لا تقتل نفسك، أنت آمن، ودمك في عنقي .. ».

ولم يعن مسلم بأمان ابن الأشعث لعلمه أنّه من أسرة خبيثة لا تعرف أي معنى من معاني النبل والوفاء، فردّ عليه قائلاً:

« يا بن الأشعث لا أعطي بيدي أبداً، وأنا أقدر على القتال، والله لا كان ذلك أبداً ..

.. «

وحمل عليه مسلم ففرّ الجبان منهزماً يلهث كالكلب، وأخذ العطش

القاسي من مسلم مأخذاً عظيماً، فجعل يقول:

« اللهم إن العطش قد بلغ مَيِّ .. ».

وتكاثرت الجنود على مسلم، وقد استولى عليهم الرعب والخوف، وصاح بهم ابن الأشعث:

« إن هذا هو العار والفشل ان تجزعوا من رجل واحد هذا الجزع، احملوا عليه بأجمعكم حملة واحدة ... ».

فحمل الأوغاد اللثام على مسلم، وجعلوا يطعنونه برماحهم، ويضربونه بسيوفهم، وقد ضربه الوغد بكير بن حمران الأحمري ضربة منكرة على شفته العليا، وأسرع السيف إلى السفلى، وضربه مسلم ضربة أردته إلى الأرض.

أسره:

وأعيى مسلماً نزيه الدم، وقد أثخن بالجراح، فاختارت قواه، ولم يتمكن على المقاومة، فوقع أسيراً بأيدي أولئك الأتزام، وتسابقوا إلى ابن مرجانة يحملون له البشري بأسرهم للقائد العظيم الذي جاء ليقم في بلادهم حكم القرآن، ويجرهم من جور الأمويين وظلمهم، وطار ابن مرجانة فرحاً، فقد ظفر بخصمه، وتم له القضاء على الثورة وحمل مسلم أسيراً إلى عبد الأمويين وعميلهم، وقد ازدحمت الجماهير التي بايعته، وأعطته العهود والمواثيق في الوفاء ببيعته إلا أنهم خانوا بذلك، وراحوا يقاتلونه.

وانتهى بمسلم إلى قصر الامارة، وقد أخذ العطش منه مأخذاً عظيماً فرأى جرّة فيها ماء بارد، فالتفت إلى من حوله فقال لهم:

« اسقوني من هذا الماء .. ».

فانبرى له اللثيم الدنس عميل الأمويين مسلم بن عمرو الباهلي، فقال له:

« أتراها ما أبردها، والله لا تذوق منها قطرة حتى تذوق الحميم في نار جهنم .. ».

ودلت هذه البادرة وغيرها مما صدر من هؤلاء الممسوخين على تجردهم من جميع القيم الإنسانية، ومن المؤكد أن هذا هو السمّ البارز من أخلاق السفلة الساقطين من قتلة الأنبياء والمصلحين، وبهر مسلم من هذا الانسان الممسوخ فقال له:

« من أنت، .. ».

فأجابه الباهلي بأنه من خدام السلطة وأذناها قائلاً:

« أنا من عرف الحق، إذ تركته، ونصح الأمة والامام إذ غششته، وسمع وأطاع إذ عصيته

أنا مسلم بن عمرو الباهلي .. ».

أيّ حقّ عرفه هذا الجلف الجافي، وهو والأكثرية الساحقة من المجتمع الذي عاش فيه، قد غرقوا في الباطل والمنكر ... ان غاية ما يفخر به الوغد تماديه في خدمة ابن مرجانة الذي هو أفقر مخلوق عرفه التاريخ البشري، وردّ عليه مسلم بمنطقه الفيّاض قائلاً:

« لامك الثكل، ما أجفأك وأفظك، وأقسى قلبك، أنت يا بن باهلة أولى بالحميم

والخلود في نار جهنم مّي .. ».

وكان عمارة بن عقبة حاضراً فاستحيا من جفوة الباهلي ولؤمه فدعا بماء بارد فصبّه في قدح، وناوله إلى مسلم، وكلما أراد أن يشرب امتلأ القدح دماً وفعل ذلك ثلاثاً، فقال: لو كان لي الرزق المقسوم لشربته.

مع ابن مرجانة:

وادخل قمر عدنان على ابن مرجانة، فسلم على الحاضرين، ولم يسلم عليه، فأنكر عليه بعض صعاليك الكوفة قائلاً:

« هل تسلم على الأمير؟ .. ».

فصاح به البطل العظيم محتقراً له ولأميره قائلاً:

« اسكت لا أم لك، والله ليس لي بأمير فأسلم عليه .. »

وتميز الطاغية غيظاً فراح يقول:

« لا عليك سلّمت أم لم تسلم فانك مقتول .. ».

إنّ بضاعة هذا الطاغية هي القتل والدمار، وهي محالاً تخيف الأحرار أمثال مسلم ممن صنعوا تاريخ هذه الأمة، وأقاموا كيانها الحضاري والفكري وجرت بين مسلم، وبين ابن مرجانة كثير من المحاورات أثبت فيها مسلم صلابته وقوة عزمته، وعدم انخياره أمام الطاغية، وأثبت بشجاعته أنّه من أفذاذ التاريخ.

إلى الرفيق الأعلى:

والتفت العُتْلُ الزنيم ابن مرجانة إلى بكير بن حمران الذي ضربه مسلم فقال له: خذ مسلماً، واصعد به إلى أعلى القصر، واضرب عنقه بيدك ليكون ذلك أشفى لصدرك، واستقبل مسلم الموت بثغر باسم، فقد بقي رابط الجأش، قويّ العزيمة، مطمئنّ النفس، فصعد به إلى أعلى القصر، وهو يسبح الله، ويقدّسه، ويدعو على السفكة المجرمين وأشرف به الجالّد على موضع الحذائين فضرب عنقه، ورمى بجسده ورأسه إلى الأرض،

وهكذا انتهت حياة هذا البطل العظيم الذي استشهد دفاعاً عن حقوق المظلومين، والمضطهدين، ودفاعاً عن كرامة الإنسان، وقضاياه المصيرية، وهو أول شهيد من أسرته النبوية يقتل علناً أمام المسلمين، ولم يهبوا لإنقاذه والدفاع عنه.

إعدام هانئ:

وأمر سليل الغدر والخيانة بعد قتل مسلم، بإعدام الزعيم الكبير، والعضو البارز في الثورة هانئ بن عروة، فأخرج من السجن، وهو يصبح أمام أسرته التي هي كالحشرات قائلاً:

« وامدحجاه .. »

« واعشيرتاه .. »

ولو كان عند أسرته صباغة من الغيرة والحمية لهبّت لإنقاذ زعيمها العظيم الذي كان لها كالأب، والذي قدّم لها جميع الخدمات، ولكنها كبقية قبائل الكوفة قد طلّقت المعروف ثلاثاً، ولا عهد لها بالشرف والكرامة.

وجيء بهانئ إلى ساحة يباع فيها الأغنام، فنقذ الجلادون فيه حكم الإعدام، فهوى إلى الأرض يتخبّط بدم الشهادة .. لقد استشهد هانئ دون مبادئه وعقيدته، وقد انطوت بشهادته أروع صفحة من صفحات البطولة والجهاد في الإسلام.

السحل في الشوارع:

وقام عملاء ابن زياد وعبيدة من الانتهازيين والغوغاء فسحلوا جثة مسلم وهانئ في الشوارع والأزقة، وذلك لإخافة العامة وشيوع الإرهاب بين

الناس، والاستهانة بشيعة مسلم وأنصاره، وقد انتهت بذلك الثورة العملاقة التي كانت تهدف إلى إشاعة العدل والأمن والرخاء بين الناس، وقد خلد الكوفيون بعد فشل الثورة إلى الذلّ والعبودية وأمعن الطاغية في ظلمهم فأعلن الأحكام العرفية في بلادهم، وأخذ يقتل على الظنّة والتهمة، ويأخذ البريء بالمدنب، كما فعل أبوه زياد من قبل، وقد ساقهم كالأغنام لأفزع جريمة عرفها التاريخ البشري وهي حربهم لحفيد النبي ﷺ الإمام الحسين عليه السلام .

* * *

إلى أرض الشهادة

وغادر الإمام الحسين عليه السلام مكة، ولم يمكث فيها، فقد علم أن الطاغية يزيد قد دسّ عصابة من الإرهابيين لاغتياله، وان كان متعلّقاً بأستار الكعبة، فخاف أن يراق دمه في البيت الحرام، وفي الشهر الحرام، وبالإضافة إلى ذلك فان سفيره مسلم بن عقيل قد كتب إليه يحثّه على القدوم إلى الكوفة، وان أهلها يتربّون قدومه، ويفدونهم بأرواحهم ودمائهم، ويقدمون له الدعم الكامل لتشكيل حكومة علوية في بلادهم.

وسار الإمام مع عائلته تحفّ بها الكوكبة المشرقة من شباب أهل البيت عليهم السلام الذين يمثلون القوة والعزم والإباء، وعلى رأسهم سيّدنا أبو الفضل عليه السلام فكانت رايته ترفرف على رأس أخيه أبي الأحرار من مكة المكرمة إلى أرض الشهادة والفداء كربلاء، وكان يراقب بدقّة حركة القافلة وسيرها خوفاً على عيال أخيه وأطفاله من أن يصيبهم عناء أو أذى من وعورة الطريق، وقد تكفّل جميع شؤونهم وما يحتاجون إليه، وقد وجدوا في رعايته وحنانه من البرّ ما يفوق حدّ الوصف.

وواصل الإمام سيرته الخالدة، وقد طافت به هواجس مريّة، فقد أيقن أنّه سيلاقى مصرعه، ومصارع أهل بيته على أيدي هؤلاء الذين كاتبوه بالقدوم إلى مصرهم، وقد تشرّف بمقابلته في الطريق الشاعر الكبير الفرزدق همام بن غالب، فسلمّ عليه وحيّاه، وقال له: « بأبي أنت وأمي يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله ما أعجلك عن الحجّ؟ ».

فأحاطه الإمام علماً بما عزمتم عليه السلطة من اغتياله قائلاً:

« لو لم أعجل لأخذت .. ».

وسارع الإمام قائلاً:

« من أين أقبلت؟ .. »

« من الكوفة .. ».

« بيّن لي خير الناس .. »

كشف الفرزدق للإمام بوعي وصدق الحالة الراهنة في الكوفة، وأنها لا تبشّر بخير، ولا

تدعو إلى التفاؤل قائلاً:

« على الخبير سقطت، قلوب الناس معك، وسيوفهم مع بني أمية، والقضاء ينزل من

السماء، والله يفعل ما يشاء ... وربنا كل يوم هو في شأن .. ».

واستصوب الإمام حديث الفرزدق، وأخبره عن عزمه الجبار وإرادته الصلبة، وأنه ماضٍ

قدماً في جهاده، وذبه عن حرمة الإسلام، فان نال ما يرومه فذاك، وإلا فالشهادة في سبيل

الله قائلاً له:

« صدقت لله الأمر من قبل، ومن بعد، يفعل الله ما يشاء، وكل يوم ربنا في شأن، ان نزل

القضاء بما نحبّ فنحمد الله على نعمائه، وهو المستعان على أداء الشكر وان حال القضاء دون

الرجاء فلم يتعدّ من كان الحقّ نيته، والتقوى سريره » وأنشأ الإمام هذه الأبيات:

لئن كانت الدنيا تعدّ نفيسة فدار ثواب الله أعلى وأنبل

وان كانت الأبدان للموت أنشئت فقتل امرئ بالسيف في الله أفضل

وان كانت الأرزاق شيئاً مقدرأ فقللة سعي المرء في الرزق أجمل

وان كانت الأموال للترك جمعها فما بال متروك به المرء ييخل

ودلّ هذا الشعر على زهده في الدنيا، ورغبته الملحة في لقاء الله تعالى، وأنّه مصمّم كأشدّ ما يكون التصميم على الجهاد، والشهادة في سبيل الله.

إنّ التقاء الإمام مع الفرزدق كشف عن خنوع الناس، وعدم اندفاعهم لنصرة الحق فالفرزدق الذي كان يملك وعياً اجتماعياً، ووعياً ثقافياً متميزاً رأى ربحانه رسول الله ﷺ وهو ماضٍ في طريقه إلى الشهادة قد تضافت قوى الباطل على حربه فلم يندفع إلى نصرته، والالتحاق بموكبه، واختار الحياة على الشهادة، فاذا كان هذا حال الفرزدق فكيف بغيره من جهّال الناس وسوادهم.

وصول النبا بمقتل مسلم:

وسارت قافلة أبي الأحرار تطوي البيداء لا تلوي على شيء حتى انتهت إلى (زرود) وإذا برجل قد أقبل من جهة الكوفة، فلما رأى الامام الحسين عليه السلام عدل عن الطريق وقد وقف الامام يريد مسألته فلما رآه قد مال عنه واصل سيره، وكان مع الإمام عبد الله بن سليمان، والمنذر بن المشمعل الأسديان فسارعا نحو الرجل حينما عرفا رغبة الإمام في سؤاله، فأدركاه، وسألاه عن خبر الكوفة فقال لهما: إنّه لم يخرج حتى قتل مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة، ورأهما يجزان بأرجلهما في الأسواق، فودّعاه وأقبلا مسرعين حتى التحقا بالإمام، فلما نزل الثعلبية قال له:

« رحمك الله ان عندنا اخباراً ان شئت حدّثناك به علانية، وان شئت سرّاً ».

ونظر الإمام إلى أصحابه الممجدين فقال:

« ما دون هؤلاء سرّ ».

« رأيت الراكب الذي استقبلته عشاء أمس؟ .. »

« نعم وأردت مسألته ... ».

« والله استبرأنا لك خبره، وهو أمرؤ منا ذو رأي، وصدق، وعقل، وانه حدّثنا انه لم يخرج من الكوفة حتى قتل مسلم، وهانئ ورأهما يجزان في الأسواق بأرجلهما .. ».

وتصدّعت قلوب العلويين وشيعتهم من هذا النبأ المفجع، وانفجروا بالبكاء واللوعة، حتى ارتجّ الموضوع بالبكاء، وسالت الدموع كالسيل، وشاركنتهم السيّدات من أهل البيت بالبكاء، وقد استبان لهم غدر أهل الكوفة ونكثهم لبيعة الإمام، وأنهم سيلاقون المصير الذي لا قاه مسلم، والتفت إلى بني عقيل فقال لهم:

« ما ترون فقد قتل مسلم؟ .. ».

ووثبت الفتية كالأسود، وهي تعلن استهانتها بالموت، وسخرتها من الحياة، مصممة على المنهج الذي سار عليه مسلم قائلين:

« لا والله لا نرجع حتى نصيب ثأرنا أو نذوق ما ذاق مسلم .. ».

راح أبو الأحرار يقول بمقاتلتهم:

« لا خير في العيش بعد هؤلاء .. ».

وقال متمثلاً:

« سأمضي وما بالموت عار على الفتى إذا ما نوى حقاً وجاهد مسلماً

فان مُتّ لم أندم وإن عشت لم ألم كفى بك عاراً أن تذلل وترغماً »

لقد مضيت . يا أبا الأحرار . قدماً إلى الموت، بعزم وتصميم، وأنت مرفوع

الرأس، ناصع الجبين في سبيل كرامتك، ولم تخضع، ولم تلن لأولئك الأقزام الذين غرقوا في الرذائل والموبقات.

النبا المفجع بشهادة عبد الله:

وسار موكب الإمام لا يلوي على شيء حتى انتهى إلى زبالة، فوافاه النبا الفظيع بشهادة عبد الله بن يقطر الذي أوفده للقياس مسلم بن عقيل، فقد ألقى الشرطة القبض عليه، وبعثته مخفوراً إلى ابن مرجانة، فلمّا مثل عنده صاح به الخبيث الدنس:

« اصعد المنبر، والعن الكذاب . يعني الامام الحسين . ابن الكذاب، حتى أرى رأيي فيك .. » .

وظنّ ابن مرجانة أنّه على غرار شرطته، ومن سنخ جلاّديه الذين باعوا ضمائرهم عليه، وما درى أنّه من أفذاذ الأحرار الذين تربّوا في مدرسة أهل البيت عليهم السلام، وسجّلوا الفخر والشرف لهذه الأمة، واعتلى البطل العظيم أعواد المنبر، ورفع صوته صوت الحقّ الهادر قائلاً:

« أيّها الناس أنا رسول الحسين بن فاطمة، لتنصروه وتؤازروه على ابن مرجانة الدعيّ ابن الدعيّ .. » .

واسترسل في خطابه الثوري، وقد دعا فيه إلى نصرّة رجحانة رسول الله صلى الله عليه وآله والذبّ عنه، ومناهضة الحكم الأموي الذي عمد إلى إذلال الإنسان المسلم، وسلب حريته وإرادته، وانتفخت أوداج ابن مرجانة وورم أنفه، فأمر بإلقاء هذا العملاق من أعلى القصر، فأخذته الشرطة، ورمته من أعلى القصر فتكسّرت عظامه، وبقي به رمق من الحياة، فأسرّع إليه الخبيث عبد الملك اللخمي فذبجه ليتقرّب إلى سيّده ابن مرجانة.

ولما علم أبو الأحرار بمصرع عبد الله شقَّ عليه ذلك، ويئس من الحياة، وعلم أنه يسير نحو الموت، وأمر بجمع أصحابه، والذين اتبعوه طلباً للعافية لا للحق، ليعلمهم بما آل إليه أمره من تخاذل الناس عنه، وانصرفهم إلى بني أمية قائلاً:

« أما بعد: فقد خذلنا شيعتنا فمن أحب منكم الانصراف فليصرف ليس عليه منّا ذمام .. ». وتفترق ذوو الأطماع الذين اتبعوه من أجل الغنيمة، والظفر ببعض مناصب الدولة وخلص إليه الصفوة الكريمة من أصحابه الممجدين الذي اتبعوه على بصيرة من أمرهم وليست عندهم أية أطماع.

لقد صرح الإمام أصحابه بالواقع في تلك المرحلة الحاسمة، فأعلمهم أنه ماضٍ إلى الشهادة لا إلى الملك والسلطان، وان من يلتحق به سيفوز برضا الله، ولو كان الامام من عشاق السلطة لما أدلى بذلك، وكنتم الأمر لأتته في أمس الحاجة إلى الناصر والحامي عنه. لقد كان الإمام عليه السلام ينصح أصحابه وأهل بيته بالتخلي عنه في كل موقف والسبب في ذلك أن يكونوا على بصيرة من أمرهم، ولا يدعي أحد منهم أنه كان على غير علم بالأمر.

الالتقاء بالحرّ:

وسار موكب الإمام يطوي البيداء حتى انتهى إلى « شراف » وفيها عين ماء فأمر الإمام فتيانه بالاستقاء والاكتثار منها، ففعلوا ذلك، وسارت القافلة، فانبرى بعض أصحاب الإمام بالتكبير، فاستغرب الامام منه، وقال له:

« لم كبرت؟ ... »

« رأيت النخل ... ».

وأنكر عليه رجل من أصحاب الإمام ممن عرف الطريق، فقال له:

« ليس ها هنا نخل، ولكنها أسنة الرماح، وأذان الخيل ... »

وتأملها الإمام، فطفق يقول: وأنا أرى ذلك . أي أسنة الرماح وأذان الخيل . وعرف الإمام

أنها طلائع الجيش الأموي جاءت لخربه فقال لأصحابه:

« أما لنا من ملجأ نلجأ إليه، فنجعله وراء ظهورنا، ونستقبل القوم من وجه واحد .. ».

وكان بعض أصحابه عارفاً بسنن الطريق فقال له:

« بلى هذا ذو حُسم^(١) إلى جنبك، تميل إليه عن يسارك، فان سبقت إليه فهو كما تريد

.. ».

ومال موكب الإمام إليه، فلم يبعد كثيراً حتى أدركه جيش مكثف بقيادة الحرّ بن يزيد

الرياحي، قد عهد إليه ابن مرجانة أن يجوب في صحراء الجزيرة للتفتيش عن الإمام، وإلقاء

القبض عليه، وكان عدد ذلك الجيش فيما يقول المؤرّخون زهاء ألف فارس، ووقفوا قبالة

الإمام في وقت الظهر، وقد أشرفوا على الهلاك من شدة الظمّ، فرقّ عليهم الإمام، فأمر

أصحابه أن يسقوهم الماء، ويرشّفوا خيولهم، وسارع أصحابه فسقوا الجيش المعادي لهم عن

آخره، ثم انعطفوا إلى الخيل فجعلوا يملأون القصاص والطساس فإذا عبّ الفرس فيها ثلاثاً،

أو أربعاً، أو خمساً، عزلت، وسقى الآخر حتى سقوها عن آخرها.

(١) ذو حسم: . يضم الحاء وفتح السين . جبل هناك.

لقد تكرّم الإمام عليّ عليه السلام على أولئك الوحوش الانذال الذين جاءوا لحربه فأنقذهم من الظمّ القاتل، ولم تهزّهم هذه الأريحية وهذا النبل، فقابلوه بالعكس، فمنعوا الماء عنه، وعن أطفاله حتى تفتّت قلوبهم من الظمّ.

خطاب الإمام في الجيش:

وخطب الإمام عليّ عليه السلام خطاباً بليغاً في قطعات ذلك الجيش، فأوضح لهم أنّه لم يأتهم محارباً، وأنّما جاءهم محرراً ومنقذاً لهم من جور الأمويين وظلمهم، وقد توافدت عليه وفودهم وكتبهم تحنّنه بالقدوم لمصرهم ليقوم دولة القرآن والإسلام، وهذه فقرات من خطابه الشريف:

« أيّها الناس، أنّها معذرة إلى الله عزّ وجلّ، وإليكم، إنّي لم آتكم حتى أتتني كتبكم وقدمت بها عليّ رسلكم ان أقدم علينا فإنّه ليس لنا إمام، ولعلّ الله أن يجمعنا بك على الهدى، فان كنتم على ذلك فقد جئتمكم، فاعطوني ما أطمئنّ به من عهودكم وموائيقكم، وان كنتم لمقدمي كارهين انصرفتم عنكم إلى المكان الذي جئت منه إليكم .. ».

وأحجموا عن الجواب لأن أكثرهم ممن كاتبوه وبايعوه على يد سفيره العظيم مسلم بن عقيل.

وحضر وقت صلاة الظهر فأمر الإمام مؤدّنه الحجاج بن مسروق أن يؤدّن ويقوم للصلاة، وبعد فراغه منها التفت الامام إلى الحرّ فقال له:

« أتريد أن تصلّي بأصحابك؟ .. ».

فقال الحرّ بأدب:

« بلى نصلي بصلاتك .. ».

وأتى الجيش بريحانة رسول الله ﷺ وبعد الفراغ من الصلاة انصرفوا إلى اخيبتهم، ولما حضر وقت صلاة العصر جاء الحرّ مع قومه فاقتدوا بالامام في الصلاة وبعد الانتهاء منها خطب الإمام الحسين عليه السلام خطاباً رائعاً، فقد قال بعد حمد الله والثناء عليه:

« أيها الناس: إنكم إن تتقوا الله، وتعرفوا الحق لأهله يكن أرضى الله، ونحن أهل البيت أولى بولاية هذا الأمر من هؤلاء المدّعين ما ليس لهم، والسائرين فيكم بالجور والعدوان، فإن أنتم كرهتمونا، وجهلتم حقنا، وكان رأيكم الآن على غير ما أتتني به كتبكم انصرفت عنكم ... ».

لقد دعاهم إلى تقوى الله، ومعرفة أهل الحق، ودعاة العدل فان في ذلك رضاً لله ونجاة لأنفسهم، كما دعاهم إلى مناصرة أهل البيت عليه السلام رواد الشرف والفضيلة، ودعاة العدل الاجتماعي في الإسلام، وهم أولى وأحقّ بولاية أمور المسلمين من بني أمية الذين حكموا فيهم بغير ما أنزل الله، وإذا لم يستجيبوا لذلك، وتبدلت نيّاتهم فانه ينصرف عنهم إلى المكان الذي جاء منه.

وانبرى إليه الحرّ، وكان لا يعلم بشأن الكتب التي بعثتها جماهير أهل الكوفة إلى الإمام فقال له:

« ما هذه الكتب التي تذكرها؟ .. ».

فأمر الإمام عقبة بن سمان بإحضارها فأخرج خرجين مملوئين صحفاً فنشرها بين يدي الحرّ، فبهر منها، وجعل يتأمل فيها، وقال للإمام:

« لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك ... ».

ورام الإمام أن ينصرف إلى المكان الذي جاء منه فمنعه الحرّ، وقال له:
« أن لا أفارقك إذا لقيتك حتى أقدمك الكوفة على ابن زياد .. »
ولذعت الامام هذه الكلمات القاسية، فثار في وجه الحرّ، وصاح به « الموت أدنى إليك
من ذلك .. ».

وأمر الإمام أصحابه بالركوب فلمّا استووا على رواحلهم أمرهم بالتوجه إلى يثرب فحال
الحرّ بينهم وبين ذلك، فصاح به الحسين:

« ثكلتك أمك ما تريد منّا؟ .. ».

واطرق الحرّ برأسه إلى الأرض، وتأمّل، ثم رفع رأسه إلى الامام وقال له بأدب:
« ولكن والله ما لي إلى ذكر أمك من سبيل إلاّ بأحسن ما يقدر عليه .. »
وسكن غضب الامام، وأعاد عليه القول:

« ما تريد منّا ..؟ ».

« أريد أن أنطلق بك إلى ابن زياد .. ».

« والله لا أتبعك .. ».

« إذن والله لا أدعك .. ».

وكاد الوضع أن ينفجر باندلاع الحرب إلاّ أن الحرّ ثاب إلى رشده، فقال للإمام:
« إيّ لي لم أؤمر بقتالك، وأمّا أمرت أن لا افارقك حتى أقدمك الكوفة، فإذا أبيت فخذ
طريقاً لا يدخلك الكوفة، ولا يردّك إلى المدينة حتى أكتب إلى ابن زياد، فلعلّ الله أن يأتي
بأمر يرزقني فيه العافية من أن أبتلي بأمرك .. ».

واتفقا على هذا الأمر فتياسر الإمام عن طريق العذيب والقادسية، وأخذت قافلة الإمام تطوي البيداء، وكان الحرّ مع جيشه يتابع الامام عن كثب ويراقبه كأشدّ ما تكون المراقبة.

خطاب الإمام:

وانتهى موكب الإمام إلى (البيضة) فألقى الإمام خطاباً رائعاً على الحرّ وأصحابه أعلن فيه عن دوافع ثورته ودعاهم إلى مناصرته، وكان من بنود هذا الخطاب هذه الفقرات:

« أيها الناس: إن رسول الله ﷺ قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله ﷺ يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغيّر ما عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله أن يدخله مدخله .. »

« إلا أن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالقيء، وأحلّوا حرام الله، وحرّموا حلاله، وأنا أحقّ ممن غيّر، وقد أتتني كتبكم، وقدمت عليّ رسلكم ببيعتكم اتكم لا تسلموني، ولا تخذلوني، فان أقمتهم على بيعتكم تصيبوا رشدكم، وأنا الحسين بن علي، وابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهليكم، ولكن في أسوة، وإن لم تفعلوا، ونقضتم عهدكم وخلعتكم بيعتي، فلعمري ما هي لكم بنكر، لقد فعلتموها بأبي وأخي، وابن عمي مسلم فالمغرور من اغترّ بكم، فحظكم أخطأتم، ونصيبكم ضيعتهم، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه، وسيغني الله عنكم .. »

وأعلن أبو الأحرار في هذا الخطاب الرائع دوافع ثورته المقدّسة على

حكومة يزيد، وأنها لم تكن من أجل المطامع والأغراض الشخصية الخاصة، وأما كانت استجابة للواجب الديني الذي لا يقتر بأي حال من الأحوال حكومة السلطان الجائر الذي يستحلّ حرمات الله، وينكث عهده، ويخالف سنة رسوله، وإن من لم يندفع إلى ساحات الجهاد لمناهضته فإنه يكون شريكاً له في ظلمه وجوره، كما ندد ﷺ بالأمويين وقد نعتهم بأنهم قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، واستأثروا بالفيء، وعطلوا حدود الله، والإمام ﷺ أحق وأولى من غيره بتغيير الأوضاع الراهنة وإعادة الحياة الإسلامية المشرقة إلى مجراها الطبيعي بين المسلمين، وأعرب لهم أنه إذا تقلد شؤون الحكم فسيجعل نفسه مع أنفسهم، وأهله مع أهلهم من دون أن يكون له أي امتياز عليهم، وقد وضع الإمام بهذا الخطاب النقاط على الحروف، وفتح لهم منافذ النور لو كانوا يبصرون، ولما أنهى الإمام خطابه قام إليه الحرّ فقال له:

« أئني أذكرك الله في نفسك، فإني أشهد لئن قاتلت لتقتلن ... ».

وردّ عليه أبو الشهداء قائلاً:

« أباالموت تخوّفي، وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلوني، وما أدري ما أقول لك، ولكني أقول: كما قال أخو الأوس لابن عمّه، وهو يريد نصرة رسول الله ﷺ أين تذهب، فأتك مقتول، فقال له:

سأمضي وما بالموت عار على الفتى	إذا ما نوى خيراً وجاهد مسلماً
ووأس الرجال الصالحين بنفسه	وخالف مثبوراً وفارق مجرماً
فان عشت لم أندم وان متّ لم ألم	كفى بك ذلاً أن تعيش وترغماً

ولما سمع الحرّ ذلك تنحّى عنه، وعرف أنّه مصمّم على الموت والتضحية لإنقاذ المسلمين من ويلات الأمويين وجورهم:

رسالة ابن مرجانة إلى الحرّ:

وتابعت قافلة الإمام سيرها في البيداء، وهي تارة تتيامن، وأخرى تتياسر وجنود الحرّ يذودون الركب عن البادية، ويدفعونه تجاه الكوفة، والركب يمتنع عليهم، وبينما هم كذلك، وإذا براكب يجدّ في سيره، فلبثوا هنيئة ينتظرونه فإذا به رسول من ابن زياد إلى الحرّ، فسلمّ الخبيث على الحرّ، ولم يسلمّ على ريجانة رسول الله ﷺ، وناول الحرّ رسالة من ابن مرجانة جاء فيها:

« أمّا بعد: فجمع بالحسين حين يبلغك كتابي، ويقدم عليك رسولي، فلا تنزله إلاّ بالعرء في غير حصن، ولا على غير ماء، وقد أمرت رسولي أن يلزمك فلا يفارقك حتى يأتيني بإنفاذك أمري والسلام .. ».

وأعرض ابن مرجانة عما عهد به إلى الحر من إلقاء القبض على الإمام، وإرساله مخفوراً إلى الكوفة، ومن المحتمل أنّه خاف من تطوّر الأحداث، وانقلاب الأوضاع إليه ان وصل الإمام إلى الكوفة، فرأى التحجير في الصحراء بعيداً عن المدن أولى بالوصول إلى أهدافه. وقرأ الحرّ كتاب ابن مرجانة على الإمام، وكان يريد أن يستأنف سيره ليحطّ رحله صوب قرية أو ماء، فامتنع عليه الحرّ لأن نظرات الرقيب الوافد من ابن زياد كانت تتابعه، وكان يسجّل عليه كل بادرة يخالف أوامر سيّده ابن مرجانة، وأشار زهير بن القين وهو من أعلام أنصار الإمام ومن خلّص أصحابه عليه أن يبادر إلى قتال الحرّ، فامتنع عليه الإمام، وقال ما كنت أبداً هم بقتال.

في كربلاء

وكان ركب الإمام في كربلاء فأصّر عليه الحرّ أن ينزل فيها، ولم يجد الإمام بُدّاً من النزول فالتفت إلى أصحابه قائلاً:

« ما اسم هذا المكان؟ .. ».

« كربلاء .. ».

وفاضت عيناه بالدموع، وراح يقول:

« اللهم إني أعوذ بك من الكرب والبلاء .. ».

وأيقن الإمام بنزول الرزء القاصم، فالتفت إلى أصحابه يعني إليهم نفسه ونفوسهم قائلاً:

« هذا موضع كرب وبلاء، ها هنا مناخ ركابنا، ومحط رحالنا، وسفك دمائنا .. ».

وسارع أبو الفضل العباس مع الفتية من أهل البيت عليهم السلام، وسائر الأصحاب الممجدين إلى نصب الخيام لعقائل الوحي، ومخدرات النبوة، وقد خيم عليهم الرعب، وأيقن بمواجهة الأحداث الرهيبة على صعيد هذه الأرض.

ورفع الإمام الممتحن يديه بالدعاء إلى الله شاكياً إليه ما ألمّ به من عظيم المحن والخطوب قائلاً:

« اللهم .. أنا عترة نبيك محمد صلى الله عليه وآله قد أخرجنا، وطرّدنا، وأزعجنا عن حرم جدنا وتعدت بنو

أمية علينا، اللهم فخذ لنا بحقنا، وانصرنا على القوم الظالمين .. ».

وأقبل الإمام على أهل بيته وأصحابه، فقال لهم:
« الناس عبيد الدنيا، والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درت معائشهم فإذا مُحصوا بالبلاء
قلّ الديّانون .. ».

يا لها من كلمات ذهبية حكمت واقع الناس واتجاهاتهم في جميع مراحل التأريخ فهم عبيد
الدنيا، وعبيد السلطة، وأما الدين والمثل العليا فلا ظلّ لها في أعماق نفوسهم، فإذا دهمتهم
عاصفة أو بلاء هربوا من الدين، ولم يثبت عليه إلاّ من امتحن الله قلبه للإيمان أمثال الصفوة
العظيمة من أهل بيت الحسين وأصحابه.
ثم حمد الامام عَلَيْهِ السَّلَامُ الله وأثنى عليه، والتفت إلى أصحابه قائلاً:

« أمّا بعد: فقد نزل بنا ما قد ترون. وان الدنيا قد تغيّرت، وتنگرت، وأدبر معروفها ولم يبق
منها إلاّ صباية كصباية الإناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل^(١) ألا ترون إلى الحقّ لا يعمل به،
وإلى الباطل لا يتناهى عنه ليرغب المؤمن في لقاء الله، فاني لا أرى الموت إلاّ سعادة، والحياة مع
الظالمين إلاّ برما .. »^(٢).

لقد أعلن أبو الأحرار بهذا الخطاب عمّا حلّ به من المحن والبلوى، وأعلم أهل بيته
وأصحابه عن عزمه الجبار وأرادته الصلبة في مقارعة الباطل، واقامة الحق الذي آمن به في
جميع أدوار حياته ... وقد وجه إليهم هذا الخطاب ليكونوا على بينة من أمرهم، ويشاركوه في
تحمل المسؤولية، وقد هبّوا جميعاً وهم يسجلون في تأريخ البشرية أروع الأمثلة للتضحية
والفداء من أجل إقامة دولة الإسلام، وكان أول من تكلم منهم زهير بن

(١) المرعى الوبيل: هو الطعام الوخيم الذي يخاف وباله وسوء عاقبته.

(٢) حياة الإمام الحسين ٣: ٩٨.

القين وهو من أفضاذ الأحرار فقال له:

« سمعنا يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله مقاتلك، ولو كانت الدنيا لنا باقية وكنا فيها مخلّدين لآثرنا النهوض معك على الإقامة فيها .. ».

ومثلت هذه الكلمات شرف الإنسان الذي لا يضاهيه شرف، وقد حكى ما في نفوس أصحابه الأحرار من الولاء لريحانة رسول الله ﷺ والتفاني في سبيله، وانبرى بطل آخر من أصحاب الإمام وهو برير الذي وهب حياته لله، فقال له:

يا بن رسول الله ﷺ لقد منّ الله بك علينا أن نقاتل بين يديك، وتقطع فيك أعضاؤنا، ثم يكون جدّك شفيعنا يوم القيامة .. ».

ولا يوجد في البشرية مثل هذا الإيمان الخالص، لقد أيقن أن نصرته لابن رسول الله ﷺ فضل وممّنة من الله عليه ليفوز بشفاعته جدّه الأعظم يوم يلتقى الله.

وانبرى بطل آخر من أصحاب الإمام، وهو نافع فأعلن نفس المصير الذي اختاره الأبطال من أصحابه، فقال:

« أنت تعلم أن جدّك رسول الله ﷺ لم يقدر أن يشرب الناس محبته، ولا أن يرجعوا إلى أمره ما أحبّ، وقد كان منهم منافقون يعدونه بالنصر، ويضمرون له الغدر، يلقونه بأحلى من العسل، ويخلفونه بأمرّ من الحنظل، حتى قبضه الله إليه، وإن أباك عليّاً كان في مثل ذلك، فقوم قد أجمعوا على نصره، وقاتلوا معه الناكثين والقاسطين والمارقين، حتى أتاه أجله فمضى إلى رحمة الله ورضوانه وأنت اليوم عندنا في مثل تلك الحالة، فمن نكث عهده، وخلع بيعته فلن يضرّ إلّا نفسه، فسر بنا راشداً معافى، مشرقاً، ان شئت أو مغرباً، فوالله ما اشفقنا من قدر الله، ولا كرهنا لقاء ربّنا،

وإنّا على نياتنا وبصائرنا، نوالي من والاك ونعادي من عاذاك .. « (١) .

دلّ هذا الخطاب الرائع على وعي نافع، وإدراكه العميق للأحداث ودراسته لأبعادها فقد أعرب أن الرسول الأعظم ﷺ بما يملك من طاقات روحية لم يستطع أن يجمع الناس على محبته، ويخضعهم إلى الإيمان برسالته، فقد كان هناك طائفة من المنافقين انتشروا في صفوف المسلمين، وهم يضمرون الكفر في دخائل نفوسهم ويظهرون الإسلام على ألسنتهم، وكانوا يبعون للنبي ﷺ الغوائل ويكيدون له في غلس الليل وفي وضح النهار، وكذلك حال وصيه وباب مدينة علمه الإمام أمير المؤمنين من بعده فقد ابتلي بمثل ما ابتلي به النبي ﷺ فقد آمن به قوم وحاربه قوم آخرون، وحال الإمام الحسين عليه السلام كحال جدّه وأبيه، فقد آمنت به قلة مؤمنة من أصحابه، وزحفت لحربه الجموع الهائلة من الذين نزع الله الإيمان من قلوبهم. وعلى أي حال فقد تكلم أكثر أصحاب الإمام بمثل كلام نافع وهم يعلنون له الإخلاص والتفاني، وقد شكرهم الامام، وأثنى عليهم، ودعا لهم بالمغفرة والرضوان.

خروج الجيوش لحرب الإمام الحسين:

وتّمت أحلام ابن مرجانة، وتحققت آماله حينما استولت طليعة جيوشه على ربحانة رسول الله ﷺ، وأخذ يطيل النظر فيمن ينتدبه لحربه، ويرشّحه لقيادة قوّاته المسلّحة، وتصفح الأرجاس من أذنا به

(١) مقتل المرقم: ٢٣١.

وعملائه، فلم ير رجساً مثل عمر بن سعد يقدم على اقتراف هذه الجريمة فقد درس نفسيته، ووقف على ميوله واتجاهاته التي منها الخنوع والمروق من الدين، وعدم المبالاة بارتكاب الآثام والجرائم، والتهالك على المادة وغير ذلك من نزعاته الشريرة.

وعرض ابن مرجانة سليل الأدياء على ابن سعد القيام بحرب سبط رسول الله ﷺ فامتنع عن إجابته فهدده بعزله عن ولاية الري فلم يطق صبراً عنها، فقد سال لها لعابه فأجابه إلى ذلك، وزحف إلى كربلاء، ومعه أربعة آلاف فارس، وهو يعلم أنه خرج لقتال ذرية رسول الله ﷺ الذين هم خيرة من في الأرض، وانتهى الجيش إلى كربلاء فانظم إلى الجيش الرابض هناك بقيادة الحرّ بن يزيد الرياحي.

خطبة ابن زياد:

وأمر الطاغية بجمع الناس في رحاب المسجد الأعظم فهرعوا كالأغنام خوفاً من ابن مرجانة، وقد امتلأ الجامع منهم فقام خطيباً فقال:

« أيّها الناس: إنكم قد بلوتم آل أبي سفيان فوجدتموهم كما تحبّون، وهذا أمير المؤمنين يزيد، قد عرفتموه حسن السيرة، محمود الطريقة، محسناً إلى الرعية، يعطي العطاء في حقّه، وقد أمنت السبل على عهده، وكذلك كان أبوه معاوية في عصره، وهذا ابنه يزيد يكرم العباد، ويغنيهم بالأموال، وقد زادكم في أرزاقكم مائة مائة، وأمرني أن أقرّوها عليكم، واخرجكم إلى حرب عدوّه الحسين فاسمعوا له وأطيعوا .. »^(١).

لقد خاطبهم باللغة التي يفهمونها، ويتهاكفون عليها، ويقدمون

(١) الطبري ٦: ٢٣٠.

أرواحهم بسخاء في سيلها، وهي المادة التي هاموا مجبها، وقد أجابوه إلى ما أراد فزجهم لاقتراف أفضع جريمة في تاريخ البشرية.

واسند القيادة في بعض قطعات جيشه إلى كل من الحصين بن نمير، وحجار بن أبحر، وشمر بن ذي الجوشن، وشبث بن ربعي، وغيرهم، وقد زحفوا بمن معهم إلى كربلاء لمساعدة ابن سعد.

احتلال الفرات:

وقامت العصابة المجرمة التي تحمل شرور أهل الأرض وخبثهم باحتلال الفرات، ولم تبق شريعة أو منفذ إلا وقد وضع عليها الحرس، وقد صدرت إليهم الأوامر المشددة من قبل القيادة العامة بالحذر واليقظة كي لا تصل قطرة من الماء إلى عترة رسول الله ﷺ الذين هم من خيرة ما خلق الله.

ويقول المؤرخون: حيل بين الحسين والماء قبل قتله بثلاثة أيام^(١) وكان ذلك من أعظم ما عاناه الإمام من المحن والخطوب، فكان يسمع صراخ أطفاله، وهم ينادون: العطش، العطش، وذاب قلب الإمام حناناً ورحمة لذلك المشهد الرهيب، فقد ذبلت شفاه أطفاله، وذوي عودهم، وجفّ لبن المراضع، وصوّر أنور الجندي هذا المنظر المفجع بقوله:

وذئاب الشرور تنعم بالماء وأهل النبيّ من غير ماء
يالظلم الأقدار يظماً قلب الليث والليث موثق الأعضاء
وصغار الحسين يكون في الصحراء يا ربّ أين غوث القضاء

(١) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان: ٨٩.

لقد نزع الله الرحمة من قلوبهم، فتنكروا لإنسانيتهم، وتنكروا لجميع القيم والأعراف، فان جميع الشرائع والمذاهب لا تبيح منع الماء عن النساء والأطفال فالناس فيه جميعاً شركاء، وقد أكدت ذلك الشريعة الإسلامية، واعتبرته حقاً طبيعياً لكل إنسان، ولكن الجيش الأموي لم يحفل بذلك، فحرم الماء على آل النبي ﷺ وكان بعض الممسوخين يتباهى ويفخر لحرمانهم الحسين من الماء، فقد انبرى الوغد اللقيم المهاجر بن أوس صوب الامام رافعاً صوته قائلاً:

« يا حسين ألا ترى الماء يلوح كأنه بطون الحيات، والله لا تذوقه أو تموت دونه .. »^(١).

واشتد عمرو بن الحجاج نحو الحسين، وهو فرح كأنما ظفر بمكسب أو مغنم قائلاً:

« يا حسين هذا الفرات تلغ فيه الكلاب، وتشرب فيه الحمير والخنازير، والله لا تذوق

منه جرعة حتى تذوق الحميم في نار جهنم .. »^(٢).

وكان هذا الوغد الأثيم ممن كاتب الإمام الحسين عليه السلام بالقدوم إلى الكوفة.

وانبرى جلف آخر من أوغاد أهل الكوفة وهو عبد الله بن الحصين الأزدي فنادى بأعلى

صوته لتسمعه مخابرات ابن مرجانة فينال منه جوائزه وهباته، قائلاً:

« يا حسين ألا تنظر إلى الماء كأنه كبد السماء، والله لا تذوق منه قطرة

(١) أنساب الأشراف ٣: ١٨١.

(٢) أنساب الأشراف ٣: ١٨٢، تأريخ ابن الأثير ٤: ٢٣٦.

حتى تموت عطشاً .. «.

فرفع الإمام يديه بالدعاء عليه قائلاً:

« اللهم اقبله عطشاً، ولا تغفر له أبداً .. »^(١).

لقد تمادى هؤلاء الممسوخون بالشرّ، وسقطوا في هوة سحيقة من الجرائم والآثام ما لها من قرار.

سقاية العباس لأهل البيت:

والتاع أبو الفضل العباس كأشدّ ما تكون اللوعة ألماً ومحنة حينما رأى أطفال أخيه وأهل بيته وهم يستغيثون من الظمّ القاتل، فانبرى الشهم النبيل لتحصيل الماء، وأخذه بالقوة، وقد سحب معه ثلاثين فارساً، وعشرين راجلاً، وحملوا معهم عشرين قرية، وهجموا بأجمعهم على نهر الفرات وقد تقدّمهم نافع بن هلال المرادي وهو من أفذاذ أصحاب الامام الحسين فاستقبله عمرو بن الحجاج الزبيدي وهو من مجرمي حرب كربلاء وقد اعهد إليه حراسة الفرات فقال لنافع:

« ما جاء بك؟ .. ».

« جئنا لنشرب الماء الذي حلاّتمونا عنه .. ».

« اشرب هنيئاً .. ».

« أفأشرب والحسين عطشان، ومن ترى من أصحابه؟ .. ».

« لا سبيل إلى سقي هؤلاء، إنّما وضعنا بهذا المكان لمنعهم عن الماء .. ».

(١) الصراط السوي في مناقب آل النبي: ٨٦.

ولم يعن به الأبطال من أصحاب الإمام، وسخروا من كلامه، فاقتحموا الفرات ليملأوا قريهم منه، فنار في وجوههم عمرو بن الحجاج ومعه مفرزة من جنوده، والتحم معهم بطل كربلاء أبو الفضل، ونافع بن هلال، ودارت بينهم معركة إلا أنه لم يقتل فيها أحد من الجانبين، وعاد أصحاب الامام بقيادة أبي الفضل، وقد ملأوا قريهم من الماء. لقد أروى أبو الفضل عطاشى أهل البيت، وانقذهم من الظمأ، وقد منح منذ ذلك اليوم لقب (السقاء) وهو من أشهر ألقابه، وأكثرها ذيوغاً بين الناس كما أنه من أحب الألقاب وأعزها عنده^(١).

أمان الشمير للعباس وأخوته:

وبادر الخبيث الدنس شمير بن ذي الجوشن إلى سيده ابن مرجانة فأخذ منه أماناً لأبي الفضل وأخوته الممجدين، وقد ظن أنه سيخدعهم، ويفردهم عن أخيهم أبي الأحرار، وبذلك يضعف جيش الإمام، لأنه يخسر هؤلاء الأبطال الذين هم من أشجع فرسان العرب، وجاء الخبيث يشتد كالكلب، وقد وقف أمام جيش الحسين، وهتف منادياً:

« أين بنو أختنا العباس وأخوته؟ .. ».

وهبت الفتية كالأسود، فقالوا له:

« ما تريد يا بن ذي الجوشن؟ .. ».

فانبرى مستبشراً بيدي لهم الحنان المزيف قائلاً:

« لكم الأمان .. ».

(١) أنساب الأشراف ٣: ١٨١.

وصاحوا به، وهم يتميِّزون من الغيظ، فقد لدعهم قوله:

« لعنك الله، ولعن أمانك، أتؤمننا، وابن بنت رسول الله ﷺ، لا أمان له ... »^(١).
وولَّى الخبيث خائباً فقد ظنَّ أن السادة الأماجد اخوة الإمام من طراز أصحابه
الممسوخين الذين باعوا ضمائرهم على ابن مرجانة ووهبوا حياتهم للشيطان، ولم يعلم أن
أخوة الحسين عليه السلام من أفضال الدنيا، الذين صاغوا الكرامة الإنسانية، وصنعوا الفخر والمجد
للإنسان.

زحف الجيوش لحرب الحسين:

وزحفت طلائع الشرك والكفر لحرب ربحانة رسول الله ﷺ في عصر الخميس لتسع
خلون من شهر محرم، بعد أن صدرت إليهم الأوامر المشددة من ابن مرجانة بتعجيل القتال
وحسم الموقف خوفاً من تبلور رأي الجيش وحدوث انقسام في صفوفه، وكان الإمام محتبياً
بسيفه أمام بيته اذ خفق برأسه، فسمعت شقيقته عقيلة بني هاشم السيدة زينب أصوات
الرجال، وتدافعهم نحو أخيها، فانبرت إليه فرعة مرعوبه، فايظته، فرفع الإمام رأسه فرأى
أخته مذهولة، فقال لها بعزم وثبات:

« إني رأيت رسول الله ﷺ في المنام، فقال: إنك تروح إلينا .. ».

وذابت نفس العقيلة أسى وحسرات، وانهارت قواها، ولم تملك نفسها أن لطمت وجهها،
وراحت تقول:

(١) أنساب الأشراف ٣: ١٨٤.

« يا ويلتاه ... »^(١).

والتفت أبو الفضل إلى أخيه فقال له:

« أتاك القوم .. ».

وطلب الإمام منه أن يتعرّف على خيبرهم قائلاً:

« اركب بنفسي أنت يا أخي، حتى تلقاهم، فتقول لهم: ما بدا لكم، وما تريدون؟ .. ».

لقد فدى الإمام عليه السلام أخاه بنفسه، وهو مما يدلّ على سموّ مكانته، وعظيم منزلته، وأنه قد بلغ قمة الإيمان، وأعلى مراتب المتقين ... وأسرع أبو الفضل نحو الجيش، ومعه عشرون فارساً من أصحابه، ومن بينهم زهير بن القين، وحبيب بن مظاهر، وسألهم أبو الفضل عن سبب زحفهم، فقالوا له:

« جاء أمر الأمير أن نعرض عليكم النزول على حكمه، أو نناجزكم ... »^(٢).

وقفل العباس إلى أخيه، فأخبره بمقاتلتهم، وراح حبيب بن مظاهر يعظهم ويحدّثهم من عقاب الله قائلاً:

« أما والله بئس القوم يقدمون غداً على الله عزّ وجلّ، وعلى رسوله محمد صلى الله عليه وآله وقد قتلوا ذريته، وأهل بيته، المتهجّدين بالأسحار، الذاكرين الله كثيراً بالليل والنهار، وشيعته الأتقياء الأبرار .. »^(٣).

وردّ عليه بوقاحة عزرة بن قيس فقال له:

(١) ابن الأثير ٣: ٢٨٤.

(٢) البداية والنهاية ٨: ١٧٧.

(٣) حياة الإمام الحسين ٣: ١٧٢.

« يا بن مظاهر إنك لتزكي نفسك .. ».

وانبرى إليه البطل الفدّ زهير بن القين فقال له: « أتق الله يا بن قيس، ولا تكن من الذين يعينون على الضلال ويقتلون النفس الزكية الطاهرة، عترة خيرة الأنبياء .. ».

فأجابه عزرة:

« كنت عندنا عثمانياً فما بالك، .. ».

فردّ عليه زهير بمنطق الشرف والإيمان:

« والله ما كتبت إلى الحسين، ولا أرسلت إليه رسولاً، ولكن الطريق جمعني وإياه، فلما رأيته ذكرت به رسول الله ﷺ وعرفت ما تقدمون من غدركم، ونكثكم، وسبيلكم إلى الدنيا، فرأيت أن أنصره، وأكون في حزيه حفظاً لما ضيّعتم من حقّ رسول الله ﷺ .. » (١).

لقد كان كلام زهير حافلاً بالصدق بجميع رحابه، فقد بيّن أنّه لم يكتب إلى الإمام بالقدوم إلى الكوفة لأنّه كان عثمانياً الهوى، ولكنه حينما التقى بالإمام في الطريق ووقف على واقع الحال من غدر أهل الكوفة به، ونكثهم لبيعته انقلب رأساً على عقب، وصار من أنصار الإمام، ومن أكثرهم مودّة وحباً له، لأن الإمام من ألصق الناس برسول الله ﷺ.

وعلى أيّ حال فقد عرض أبو الفضل مقالة القوم على أخيه، فقال له:

« ارجع إليهم فان استطعت أن تؤخّروهم إلى غدوة لعلنا نصلي لربنا هذه الليلة، وندعوه، ونستغفره فهو يعلم أنّي أحبّ الصلاة،

(١) أنساب الأشراف ٣: ١٨٤.

وتلاوة كتابه، وكثرة الدعاء والاستغفار ... ».

لقد أراد رجحانة رسول الله ﷺ أن يوَدِّع الحياة الدُّنيا بأثمن ما فيها وهي الصلاة والدعاء والاستغفار وتلاوة القرآن الكريم، وإن يواجه الله تعالى وقد تزوَّد منها.

ورجع أبو الفضل عابداً إلى معسكر ابن مرجانة فأخبرهم بمقالة أخيه فعرض ابن سعد ذلك على الخبيث الدنس شمر بن ذي الجوشن خوفاً من وشايته إذا استجاب لطلب الإمام، فقد كان شمر المنافس الوحيد لابن سعد على إمارة الجيش كما كان عيناً عليه، كما أراد أن يكون شريكاً له في المسؤولية فيما إذا عاتبه ابن زياد على تأخير الحرب.

ولم يبد الشمر أي رأي له في الموضوع، وإنما أحاله لابن سعد ليكون هو المسؤول عنه، وانبرى عمرو بن الحجاج الزبيدي فأنكر عليهم هذا التردد والإحجام عن إجابة الإمام قائلاً:

« سبحان الله!! والله لو كان من الديلم ثم سألكم هذه المسألة لكان ينبغي أن تجيبوه .. »^(١).

ولم يزد ابن الحجاج على ذلك، فلم يقل لهم: انه ابن رسول الله ﷺ وأنهم هم الذين غرّوه وكتبوه بالقدوم إلى مصرهم، لم يقل ذلك خوفاً من أن تنقل الاستخبارات العسكرية إلى ابن زياد ذلك فينال العقاب والحرم، وأيد ابن الأشعث مقالته، فاستجاب ابن سعد إلى تأجيل الحرب، وأوعز إلى رجل من أصحابه أن يعلن ذلك، فدنا من معسكر الإمام ورفع صوته قائلاً:

(١) تاريخ ابن الأثير ٣: ٢٨٥.

« يا أصحاب الحسين بن علي قد أجّلناكم يومكم هذا إلى غد فان استسلمتم ونزلتم على حكم الأمير وجهنا بكم إليه وان أبيتم ناجزناكم ... »^(١).
وأرجى القتال إلى صبيحة اليوم العاشر من المحرم، وظلّ جيش ابن سعد ينتظرون الغد هل يجيبهم الإمام أو يرفض ما دعوه إليه.

الإمام يأذن لأصحابه بمفارقتة:

وجمع ربحانة رسول الله ﷺ أهل بيته وأصحابه في ليلة العاشر من المحرم، وعرض عليهم ما يلاقيه من الشهادة، وطلب منهم أن ينطلقوا في رحاب الأرض ويتركوه وحده ليقلى مصيره المحتوم، وقد أراد بذلك أن يكونوا على بينة من أمرهم فقال لهم:
« أثني على الله أحسن الثناء، وأحمده على السرّاء والضراء ... اللهم إني أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة، وعلمتنا القرآن، وفهمتنا في الدين وجعلت لنا أسماعاً وأبصاراً وأفئدة، ولم تجعلنا من المشركين.

أما بعد: فأني لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت خيراً من أهل بيتي، فجزاكم الله جميعاً عني خيراً، ألا واني لأظنّ يومنا من هؤلاء الأعداء غداً، واني قد أذنت لكم جميعاً فانطلقوا في حلّ ليس عليكم مني ذمام، وهذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً، وليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي، فجزاكم الله جميعاً خيراً، ثم تفرّقوا في سوادكم ومدائنكم حتى يفرج الله، فان

(١) حياة الإمام الحسين ٣: ١٦٥.

القوم أنّما يطلبونني ولو أصابوني لُهووا عن طلب غيري ...» (١).

وتمثّلت روعة الإيمان، وسرّ الإمامة بهذا الخطاب العظيم الذي كشف جانباً كبيراً عن نفسية أبي الأحرار، فقد تجنّب في هذا الموقف الدقيق الحاسم جميع ألوان المنعطفات، ووضع أصحابه وأهل بيته أمام الأمر الواقع فقد حدد لهم النتيجة التي لا مفرّ منها وهي القتل والتضحية، وليس هناك أي شيء آخر من متع الدنيا، وقد طلب منهم أن يخلّوا عنه وينصرفوا تحت جناح الظلام، فيتخذونه سترًا دون كل عين، فلعلّهم ينجحون أن يبتعدوا عنه في وضع النهار، فقد جعلهم في حلّ من التزاماتهم تجاهه، وقد عزّفهم أنّه بالذات هو الهدف لتلك الوحوش الكاسرة المتعطشة إلى سفك دمه، فإذا ظفروا به فلا إرب لهم في طلب غيره.

جواب أهل البيت:

ولم يكذب يفرغ الإمام من خطابه حتى هبّت الصفوة من أهل البيت عليهم السلام، وعيونهم تفيض دموعاً، وهم يعلنون ولاءهم له، وتضحيتهم في سبيله، وقد مثلهم أبو الفضل العباس عليه السلام فخطب الإمام قائلاً:

« لم نفعل ذلك؟! لنبقى بعدك، لا أرانا الله ذلك أبداً .. ».

والتفت الإمام إلى السادة من أبناء عمّه من بني عقيل، فقال لهم:

« حسبكم من القتل بمسلم، اذهبوا فقد اذنت لكم ... ».

وهبّت فيّئة آل عقيل كالأسود تتعالى أصواتهم، قائلين:

« إذن ما يقول الناس:، وما نقول:، إنا تركنا شيخنا وسيّدنا، وبني

(١) ابن الأثير ٣: ٢٨٥.

عمومتنا خير الأعمام، ولم نرم معهم بسهم، ولم نطعن برمح، ولم نضرب بسيف ولا ندرى ما صنعوا، لا والله لا نفعل، ولكن نفديك بأنفسنا واموالنا وأهلينا نقاتل معك، حتى نرد موردك، فقبح الله العيش بعدك ...» (١).

لقد صمّموا على حماية الإمام العظيم، والدفاع عن أهدافه ومبادئه، واختاروا الموت تحت ظلال الأستة على الحياة التي لا هدف فيها.

جواب أصحابه:

أما أصحاب الإمام عليّ فهم أحرار هذه الدنيا، وقد اندفعوا يعلنون للإمام عليّ الفداء والتضحية دفاعاً عن المبادئ المقدسة التي ناضل من أجلها الإمام، وقد انبرى مسلم بن عوسجة فخطب الإمام قائلاً:

«نحن نخلي عنك، وبماذا نعتذر إلى الله في اداء حقك، أما والله لا أفارقك حتى أطلعن في صدورهم برمحي، وأضرب بسيفي ما ثبت قائمه بيدي، ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم لقدفتهم بالحجارة حتى أموت معك ..».

لقد عبّرت هذه الكلمات عن عميق إيمانه بريحانة رسول الله ﷺ وأنه سيدب عنه حتى النفس الأخير من حياته.

وانبرى بطل آخر من أصحاب الإمام وهو سعيد بن عبد الله الحنفي فخطب الإمام قائلاً:

«والله لا نخليك حتى يعلم الله أنا قد حفظنا غيبة رسوله ﷺ فيك، أما والله لو علمت أيّ أقتل، ثم أحياء، ثم أحرق، ثم أذرى يفعل بي ذلك

(١) تاريخ الطبري ٦: ٢٣٨.

سبعين مرّة لما فارقتك حتى ألقى حمامي دونك، وكيف لا أفعل ذلك، وأتما هي قتلة واحدة، ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبدا ...» .

وليس في قاموس الوفاء أصدق، ولا أنبل من هذا الوفاء، فهو يتمّي من صميم قلبه أن تجري عليه عملية القتل سبعين مرّة ليفدي الإمام عليه السلام، ليحفظ بذلك غيبة رسول الله صلى الله عليه وآله وكيف لا يستطيب الموت في سبيله وأتما هو مرّة واحدة، ثم هي الكرامة الأبدية التي لا انقضاء لها .

وانبرى زهير بن القين فأعلن نفس الاتجاه الذي أعلنه المجاهدون من إخوانه قائلاً:
« والله لوددت أنّي قُتلت، ثم نشرت، ثم قتلت حتى أقتل ألف مرّة، وان الله عزّ وجلّ يدفع بذلك القتل عن نفسك، وعن أنفس هؤلاء الفتيان من أهل بيتك .. »^(١) .
أرايتم وفاء هؤلاء الأبطال، فهل تجدون لهم مثيلاً في تاريخ هذه الدنيا، لقد ارتفعوا إلى مستوى من النبل والشهامة لم يبلغه أي إنسان وقد أعطوا بذلك الدروس المشرقة في الدفاع عن الحق .

وأعلن بقيّة أصحاب الإمام عليه السلام الترحيب بالشهادة في سبيل إمامهم، فجزاهم خيراً، وأكّد لهم جميعاً أنّهم سينعمون في الفردوس الأعلى، ويحشرون مع النبيين والصدّيقين، وهتفوا جميعاً:

« الحمد لله الذي أكرمنا بنصرك، وشرفنا بالقتل معك، أو لا ترضى أن نكون معك في درجتك يا بن رسول الله .. »^(٢) .

لقد أترعت نفوس هؤلاء الأبطال بالإيمان العميق، فتحزّروا من

(١ و ٢) حياة الإمام الحسين ٣: ١٦٨ - ١٦٩ .

جميع ملاذ الحياة ولهوها، واتجهوا صوب الله، فرفعوا راية الإسلام عالية خفاقة في رحاب هذا الكون.

إحياء الليل بالعبادة:

وأقبل الإمام عليه السلام مع الصفوة الطيبة المؤمنة من أهل بيته وأصحابه نحو الله يناجونه بقلوبهم وعواطفهم، وهم يسألونه العفو والغفران ولم يذق أحد منهم طعم الرقاد، فقد كانوا ما بين رакع وساجد وقارئ للقرآن، وكان لهم دويّ كدويّ النحل.

وكانوا ينتظرون انبثاق نور الصبح بفارغ الصبر لينالوا الشهادة بين يديّ ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله.

وأما معسكر ابن زياد فقد باتوا وهم في شوق لطلوع الصبح ليريقوا دماء أهل البيت عليهم السلام ليقتربوا بها إلى سيدهم ابن مرجانة.

* * *

يوم عاشوراء

وليس مثل يوم العاشر من المحرم في مآسيه وكآبته وكوارثه، فلم تبق محنة من محن الدنيا، ولا فاجعة من فواجع الدهر إلا جرت على ریحانة رسول الله ﷺ فلا يوم مثل ذلك اليوم الخالد في دنيا الأحرار.

دعاء الامام:

وخرج أبو الأحرار من خبائه فرأى البيداء قد ملئت خيلاً ورجالاً وقد شهر أولئك البغاة اللثام سيوفهم لإراقة دمه، ودماء الصنفوة البررة من أهل بيته وأصحابه لينالوا الأجر الزهيد من الإرهابي المجرم ابن مرجانة، ودعا الإمام بمصحف فنشره على رأسه، ورفع يديه بالدعاء إلى الله قائلاً:

« اللهم أنت ثقتي في كل كرب، ورجائي في كل شدة، وأنت لي في كل أمر نزل بي ثقة وعدة، كم من همّ يضعف فيه الفؤاد، وتقلّ فيه الحيلة، ويخذل فيه الصديق، ويشمت فيه العدو أنزلته بك، وشكوته إليك رغبة منّي إليك عمّن سواك، ففرّجته وكشفته، وكفيتته،

فأنت وليّ كل نعمة، وصاحب كل حسنة، ومنتهى كل رغبة ...» (١).

لقد أناب الإمام إلى الله، وأخلص له، فهو وليّته، والملجأ الذي يلجأ إليه في كل نائبة نزلت به.

خطبة الإمام:

ورأى الإمام عليه السلام أن يقيم الحجّة البالغة على أولئك الوحوش قبل أن يقدموا على اقرار الجرمية، فدعا بإراحتة فركبها، واتجه نحوهم، فخطب فيهم خطابه التاريخي الحافل بالمواعظ والحجج، فقد نادى بصوت عال يسمعه جلّهم:

« أيّها الناس اسمعوا قولي، ولا تعجلوا حتى أعظكم بما هو حقّ لكم عليّ، وحتى أعتذر إليكم من مقدمي عليكم، فان قبلتم عذري، وصدقتم قولي وأعطيتموني النصف، كنتم بذلك أسعد، ولم يكن لكم عليّ سبيل، وان لم تقبلوا منّي العذر، ولم تعطوا النصف من أنفسكم، فاجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة، ثم امضوا إليّ ولا تُنظرون، إن وليّ الله الذي نزل الكتاب وهو يتولّى الصالحين .. ».

وحمل الأثير هذه الكلمات إلى السيدات من عقائل النبوة، ومخدرات الرسالة فتصارحن بالبكاء، فبعث إليهنّ أخاه العباس، وابنه عليّاً، وقال لهما:
سكتاهنّ، فلعمري ليكثر بكاؤهنّ، ولما سكتن استرسل في خطابه

(١) تأريخ ابن عساكر ١٣: ١٤.

فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على جدّه الرسول ﷺ وعلى الملائكة والأنبياء، وقال في ذلك: ما لا يحصى ذكره، ولم يسمع لا قبله، ولا بعده أبلغ منه في منطقه (١).
وكان مما قاله:

« أيّها الناس ان الله تعالى خلق الدنيا فجعلها دار فناء وزوال، متصرفة بأهلها حالاً بعد حال، فالمغرور من غرته، والشقي من فتنته، فلا تغرّكم هذه الدنيا، فانها تقطع رجاء من ركن إليها، وتخيب طمع من طمع فيها، وأراكم قد اجتمعتم على أمر قد أسخطتم الله فيه عليكم، وأعرض بوجهه الكريم عنكم، وأحلّ بكم نقمته، فنعم الرب ربنا، وبئس العبيد أنتم، أقررتم بالطاعة وآمنتكم بالرسول ﷺ ثم أنكم زحفتم إلى ذريته وعترته تريدون قتلهم، لقد استحوذ عليكم الشيطان فأنساكم ذكر الله العظيم، فنبأ لكم ولما تريدون، إنّ الله وإنّا إليه راجعون هؤلاء قوم كفروا بعد إيمانهم فبعداً للقوم الظالمين ».

لقد وعظ الإمام عليه السلام أعداءه بهذه الكلمات التي تمثّل هدي الأنبياء ومخنتهم في أممهم، لقد حدّتهم من فتنة الدنيا وغرورها، وأهاب بهم من التورط في قتل عتره نبيهم وذريته، وأنهم بذلك يستوجبون العذاب الأليم، والسخط الدائم، ثم استرسل الإمام الممتحن في خطابه فقال:

« أيّها الناس: انسوني من أنا، ثم ارجعوا إلى أنفسكم، وعاتبوها، وانظروا هل يحلّ لكم قتلي، وانتهاك حرمتي، ألسنت ابن بنت نبيكم، وابن وصيّه، وابن عمّه، وأول المؤمنين بالله، والمصدق

(١) تاريخ الطبري ٦: ٢٤٢.

لرسوله، بما جاء من عند ربّه، أو ليس حمزة سيّد الشهداء عمّ أبي، أو ليس جعفر الطيّار عمّي، أو لم يبلغكم قول رسول الله ٩ لي ولأخي « هذان سيّدا شباب أهل الجنّة » فان صدّقتموني بما أقول: وهو الحقّ، والله ما تعمّدت الكذب منذ علمت أن الله يمقت عليه أهله، ويضّرّ به من اختلقه، وإن كذبتُموني فان فيكم من إذا سألتُموه أخبركم، سلوا جابر بن عبد الله الأنصاري، وابا سعيد الخدري، وسهل ابن سعد الساعدي، وزيد بن أرقم، وأنس بن مالك يخبروكم أنّهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله ٩ لي ولأخي أما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي، .. » .

وكان خليفاً بهذا الخطاب المشرق أن يرجع لهم حوازب عقولهم، ويردّهم عن طغيانهم، فقد وضع الإمام النقاظ على الحروف، ودعاهم إلى التأمل ولو قليلاً ليمعنوا في شأنه أليس هو حفيد نبيّهم وابن وصيه، وهو سيّد شباب أهل الجنّة كما أعلن ذلك جدّه الرسول ﷺ وفي ذلك حصانة له من سفك دمه وانتهاك حرّمته، ولكن الجيش الأموي لم يع هذا المنطق، فقد خلد إلى الجريمة، واسودّت ضمائرهم، وحيل بينهم وبين ذكر الله. وتصدّى لجواب الإمام ثمر بن ذي الجوشن وهو من المسوخين فقال له:

« هو يعبد الله على حرف إن كان يدري ما تقول .. » .

وحقاً انه لم يع ما يقول الإمام فقد ران على قلبه الباطل، وغرق في الاثم وقد أجابه حبيب بن مظاهر وهو من أعلام الهدى والصلاح فقال له:

« والله ابّي لأراك تعبد الله على سبعين حرفاً، وأنا أشهد أنّك صادق ما تدري ما يقول، قد طبع الله على قلبك .. » .

والتفت الإمام إلى قطعات الجيش فخطبهم:

« فإن كنتم في شك من هذا القول، أفتشكون أنني ابن بنت نبيكم فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري فيكم، ولا في غيركم، ويحكم أطلبوني بقتيل منكم قتله، أو مال لكم استهلكته، أو بقصاص جراحة .. ».

وغدوا حيارى لا يملكون جواباً لردّه، ثم التفت الإمام إلى قادة الجيش الذين دعوه بالقدوم إلى مصرهم فقال لهم:

« يا شيبث بن ربعي، ويا حجار بن أبجر، ويا قيس بن الأشعث، ويا زيد بن الحرث، ألم تكتبوا إليّ ان قد أينعت الثمار، وأخضر الجناب، وإنا تقدم على جندك مجتدة ... ».

وأنكر أولئك الخونة كتبهم، وما عاهدوا عليه الله من نصرهم للإمام، فقالوا له « لم نفعل ذلك .. ».

وبهر الإمام من ذلك وراح يقول:

« سبحان الله!! بلى والله لقد فعلتم .. ».

وأعرض الإمام عنهم، ووجه خطابه إلى جميع قطعات الجيش قائلاً:

« أيها الناس: إذا كرهتموني فدعوني أنصرف عنكم إلى مأمني من الأرض .. ».

وتصدّى لجوابه قيس بن الأشعث وهو من رؤوس المنافقين، وقد خلع كل شرف وحياء فقال له:

« أو لا تنزل على حكم بني عمك، فاتهم لن يروك إلا ما تحبّ، ولن يصل إليك منهم مكروه .. ».

فردّ عليه الإمام قائلاً:

« أنت أخو أخيك، أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل، لا والله لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل، ولا أفر فرار العبيد، عباد الله إنني عدت بربي وربكم أن ترجمون، أعوذ بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ... (١) ».

ومثلت هذه الكلمات عزة الأحرار وشرف الأباة، ولم تنفذ إلى قلوب أولئك الجفافة الذين غرقوا في الجهل والآثام.

وتكلم أصحاب الإمام مع معسكر ابن زياد، وأقاموا عليهم الحجّة، وذكرهم بجور الامويين، وما أنزلوه بهم من الجور والاستبداد، ولم يُجد معهم النصائح شيئاً، وراحوا يفخرون بنصرتهم لابن مرجانة، وقتلهم لريحانة رسول الله ﷺ.

خطاب آخر للإمام الحسين:

وانبرى سبط رسول الله ﷺ مرّة أخرى إلى إسداء النصحية إلى الجيش الأموي مخافة أن يدعي أحد منهم أنه غير عارف بالأمر، فانطلق عليّاً نحوهم، وقد نشر كتاب الله العظيم على رأسه، واعتّم بعمامة جدّه رسول الله ﷺ. وتقلّد لامة حربه، وكان على هيئة تحكي هيئة الأنبياء والأوصياء فقد علت أسارير النور على وجهه الكريم فقال:

« تَبَا لَكُمْ أَيَّتُهَا الْجَمَاعَةُ وَتَرَحَّأ حِينَ اسْتَصْرَحْتُمُونَا وَالْهَيْنَ فَأَصْرَحْنَاكُمْ مُوجِفِينَ (٢) ، سَلَلْتُمْ عَلَيْنَا سَيْفًا لَنَا فِي إِيْمَانِكُمْ، وَحَشَشْتُمْ (٣) »

(١) تاريخ الطبري ٦: ٤٣.

(٢) موجفين: أي مسرعين إليكم.

(٣) حششتم: أي أوقدم النار.

عَلَيْنَا نَارًا إِفْتَدَحْنَاهَا عَلَى عَدُونَا وَعَدُوكُمْ، فَأَصْبَحْتُمْ أَلْبِيًّا ^(١) لِأَعْدَائِكُمْ عَلَى أَوْلِيَائِكُمْ بِغَيْرِ
عَدَلٍ أَفْشَوْهُ فِيكُمْ وَلَا أَمَلٍ أَصْبَحَ لَكُمْ فِيهِمْ.
مَهْلًا. لَكُمْ الْوَيْلَاتُ. تَرَكْتُمُونَا وَالسَّيْفُ مِشِيمٌ ^(٢) وَالْجَأَشُ طَائِمٌ وَالرَّأْيُ لَمَّا يَسْتَحْصِفُ، وَلَكِنْ
أَسْرَعْتُمْ إِلَيْهَا كَطَيْرَةِ الدِّبَا ^(٣)، وَتَدَاعَيْتُمْ إِلَيْهَا كَنَهَافَتِ الْفَرَّاشِ ^(٤).
فَسُخِّقًا لَكُمْ يَا عِبِيدَ الْأَمَّةِ، وَشِدَادَ الْأَعْرَابِ، وَنَبْدَةَ الْكِتَابِ، وَمُحَرَّفِي الْكَلِمِ، وَعَصَبَةَ
الْأَثَامِ، وَنَفْثَةَ الشَّيْطَانِ، وَمُطْفِئَةَ السُّنَنِ.
أَهْوَلًا لِعِ تَعْضُدُونَ، وَعَنَا تَتَخَاذُلُونَ؟!
أَجَلٌ وَاللَّهِ غَدْرٌ فِيكُمْ قَدِيمٌ وَشَجَتْ إِلَيْهِ أَصُولُكُمْ ^(٥) وَتَأَزَّرَتْ عَلَيْهِ فُرُوعُكُمْ ^(٦)، فَكُنْتُمْ أَحْبَثَ
شَجَرٍ شَجَا لِلنَّاطِرِ وَأَكْلَةً لِلْغَاصِبِ.
أَلَا وَإِنَّ الدَّعِيَّ ابْنَ الدَّعِيِّ قَدْ رَكَزَ بَيْنَ اثْنَتَيْنِ: بَيْنَ السَّلَّةِ ^(٧) وَالذَّلَّةِ، وَهَيْهَاتَ مِنَّا الذَّلَّةُ، يَا أَبَى
اللَّهِ لَنَا ذَلِكَ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَحُجُورٌ طَابَتْ وَطَهَّرَتْ وَأُنُوفٌ حَمِيَّةٌ وَنُفُوسٌ أَيْبَةٌ: مِنْ أَنْ تُؤَثِّرَ
طَاعَةَ النَّامِ عَلَى مِصَارِعِ الْكِرَامِ.

(١) إلبا: أي قوة لأعدائكم، وذلك باجتماعهم.

(٢) مشيم: أي السيف في غمده لا يسيل.

(٣) الدبا: يفتح الدال، وتخفيف الباء الجراد قبل أن يطير.

(٤) الفراش: جمع فراشة وهي صغار البق تنهافت في النار لضعف بصرها.

(٥) وشجت: أي التفت عليه أصولكم.

(٦) تأزرت: أي نبتت عليه فروعكم.

(٧) السلة: بكسر السين استلال السيف.

أَلَا وَاتَى زاحِفٌ بِهِدِهِ الأُسْرَةَ مَعَ قِلَّةِ العُدَدِ وَخَذَلَةَ النَّاصِرِ « .
ثُمَّ أَوْصَلَ كَلَامَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَيَّاتِ فِرْوَةَ بْنِ مُسَيْكٍ المُرَادِي:

« فَإِنْ نَهَزِمَ فَهَزَائِمُونَ قِدَمًا وَإِنْ نُغَلِبَ فَعَيْرٌ مُعَلِّينَا
وَمَا إِنْ طَبْنَا جُبْنَ وَلَكِنْ مِنَايَانَا وَدَوْلَاةَ آخِرِينَا
إِذَا مَا المَوْتُ رَفَعَ عَنُ أَناسِ كَلَاكِلُهُ أَنَسَاخَ بِآخِرِينَا
فَأَفَى ذَلِكُمْ سَرَوَاتِ قَوْمِي كَمَا أَفَنَى القُرُونُ الأُولِينَا
فَلَوْ خَلَدَ المُلُوكُ إِذَا خَلَدْنَا وَلَوْ بَقِيَ الكِرَامُ إِذَا بَقِينَا
فَقُلْ لِلشَّامِتِينَ بِنَا: أَفِيئُوا سَيَلَقَى الشَّامِتُونَ كَمَا لَقِينَا »
ثُمَّ قَالَ: « أَيُّمُ وَاللَّهِ لَا تَلْبَثُونَ بَعْدَهَا إِلَّا كَرِيثٌ مَا يُرْكَبُ الفَرَسُ حَتَّى يَدُورَ بِكُمْ دَوْرَ الرِّيحِ
وَتَفْلَقَ بِكُمْ قَلَقَ المِحْوَرِّ، عَهْدٌ عَهْدُهُ إِلَيَّ أَبِي عَن جَدِّي، فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ، ثُمَّ لَا يَكُنْ
أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً، ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظَرُونَ.
إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ، مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا، إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ .

اللَّهُمَّ احْبِسْ عَنْهُمْ قَطَرَ السَّمَاءِ، وَابْعَثْ عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسَنِي يُوسُفَ، وَسَلِّطْ عَلَيْهِمْ غَلَامَ ثَقِيفٍ
يَسُومُهُمْ كَأَسَا مُصْبِرَةً، فَإِنَّهُمْ كَذَّبُونَا وَخَذَلُونَا، وَأَنْتَ رَبُّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ
« .

ومثل هذا الخطاب الثوري صلابة الإمام، وقوة عزيمته، وشدة بأسه، فقد استهان بأولئك
الأقزام الذين هبوا إليه يستنجدون به، ويستغيثون لينقذهم من جور الامويين وظلمهم، فلما
أقبل إليهم انقلبوا عليه رأساً على

عقب، فسَلّوا عليه سيوفهم وشهروا عليه رماحهم تقرّباً للطغاة والظالمين لهم، والمستبدين بشؤونهم في حين أنّه لم يبدو من أولئك الحكام أية بارقة من العدل فيهم، كما أعلن الإمام عن رفضه الكامل لدعوة ابن مرجانة من الاستسلام له، فقد أراد له الذلّ والهوان، وهيئات أن يرضخ لذلك وهو سبط الرسول ﷺ والممثل الأعلى للكرامة الإنسانية، فقد صمّم على الحرب بأسرته التي مثلت البطولات ليحفظ بذلك كرامته، وكرامة الأمة.

وقد أخبرهم الإمام عن مصيرهم بعد قتلهم له أنّهم لا يعمون بالحياة، وإن الله يسلّط عليهم من يسقيهم كأساً مصيرة، ويجرعهم الغصص وينزل بهم العذاب الأليم، وقد تحقّق ذلك فلم يمض قليل من الوقت بعد اقترافهم لقتل الإمام حتى ثار عليهم البطل العظيم، والثائر المجاهد، ناصر الإسلام الزعيم الكبير المختار بن يوسف الثقفي فقد ملأ قلوبهم رعباً وفزعاً، ونكّل بهم تنكياً فظيماً، وأخذت شرطته تلاحقهم في كل مكان فمن ظفرت به قتلته أشترّ قتلة، ولم يفلت منهم إلا القليل.

وقد وجم جيش ابن سعد بعد هذا الخطاب التاريخي الخالد، ووّد الكثيرون منهم أن تسيخ بهم الأرض.

استجابة الحرّ:

واستيقظ ضمير الحرّ، وثابت نفسه إلى الحقّ بعدما سمع خطاب الإمام، وجعل يتأمّل، ويفكّر في تلك اللحظات الحاسمة من حياته فهل يلتحق بالحسين، ويحفظ بذلك آخرته، وينقذ نفسه من عذاب الله وسخطه، أو أنّه يبقى على منصبه كقائد فرقة في الجيش الأموي، وينعم بصلات ابن مرجانة، واختار الحرّ نداء ضميره الحيّ، وتغلّب على هواه،

فصمم على الالتحاق بالإمام الحسين عليه السلام وقبل أن يتوجّه إليه أسرع نحو ابن سعد القائد العام للقوات المسلّحة فقال له:

« أمقاتل هذا الرجل، .. ».

ولم يلتفت ابن سعد إلى انقلاب الحرّ فقد أسرع قائلاً بلا تردّد:

« أي والله قتالاً أيسره أن تسقط فيه الرؤوس وتطيح الأيدي .. ».

لقد أعلن ذلك أمام قادة الفرق ليظهر إخلاصه لابن مرجانة، فقال له الحرّ:

« أفمالكم في واحدة من الخصال التي عرضها عليكم رضا .. ».

واندفع ابن سعد قائلاً:

« لو كان الأمر لي لفعلت، ولكن أميرك أبي ذلك .. ».

ولما أيقن الحرّ أن القوم مصمّمون على حرب الإمام عزم على الالتحاق بمعسكر الإمام،

وقد سرت الرعدة بأوصاله، فأنكر عليه ذلك زميله المهاجر ابن أوس فقال له:

« والله إن أمرك لمريب، والله ما رأيت منك في موقف قطّ مثل ما أراه الآن، ولو قيل لي:

من أشجع أهل الكوفة لما عدوتك، .. ».

وأعرب له الحرّ عمّا صمّم عليه قائلاً:

« إيّ والله أخبّر نفسي بين الجنّة والنار، ولا اختار على الجنّة شيئاً ولو قطعت وأحرقت

.. ».

وألوى بعنان فرسه نحو الإمام ^(١) وكان مطرقاً برأسه إلى الأرض حياءً وندماً على ما صدر

منه تجاه الإمام، ولما دنا منه رفع صوته ودموعه تتبلور

(١) تاريخ الطبري ٦: ٢٤٤.

على خديهِ قائلاً:

« اللهم إليك أنيب، فقد أربعت قلوب أوليائك، وأولاد نبيك، يا أبا عبد الله إني تائب
فهل لي من توبة .. ».

ونزل عن فرسه، وأقبل يتضرّع ويتوسّل إلى الإمام ليمنحه التوبة قائلاً:

« جعلني الله فداك يا بن رسول الله، أنا صاحبك الذي حبستك عن الرجوع، وجمععت
بك في هذا المكان، ووالله الذي لا آله إلا هو، ما ظننت أن القوم يردون عليك ما عرضت
عليهم أبداً، ولا يبلغون منك هذه المنزلة أبداً، فقلت في نفسي: لا أبالي أن أطيع القوم في
بعض أمرهم، ولا يرون أني خرجت من طاعتهم، وأما هم فيقبلون بعض ما تدعوهم إليه،
ووالله لو ظننت أنهم لا يقبلون منك ما ركبته منك، وإني قد جئت تائباً مما كان مني إلى
ربي، مواسياً لك بنفسي حتى أموت بين يديك أفترى لي توبة، .. ».

واستبشر به الإمام، ومنحه الرضا والعفو، وقال له:

« نعم يتوب الله عليك ويغفر .. »^(١).

ومألاً الفرح قلب الحرّ حينما فاز برضاء ريحانة رسول الله ﷺ واستأذنه أن ينصح أهل
الكوفة لعلّ بعضهم أن يرجع إلى الحقّ، ويتوب إلى الرشاد، فأذن له الإمام في ذلك، فانبرى
الحرّ إليهم رافعاً صوته:

« يا أهل الكوفة لأمكم الهبل^(٢) والعبر^(٣) أدعوتموه حتى إذا أتاكم

(١) الكامل ٢: ٢٨٨.

(٢) الهبل: الثكل.

(٣) العبر: البكاء وجرّيان الدمع.

اسلمتموه وزعمتم أنّكم قاتلوا أنفسكم دونه، ثم عدوتم عليه لتقتلوه، أمسكتكم بنفسه، وأحطتم به، ومنعتموه من التوجه إلى بلاد الله العريضة، حتى يأمن، ويأمن أهل بيته، فأصبح كالأسير، لا يملك لنفسه نفعاً، ولا يدفع عنها ضرراً، ومنعتموه ومن معه عن ماء الفرات الجاري يشربه اليهودي والنصراني والمجوسي، ويتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه، وها هو وأهله قد صرعهم العطش، بئسما خلفتم محمداً ﷺ في ذريته، لا سقاكم الله يوم الظمأ إن لم تتوبوا، وتفزعوا عما أنتم عليه ...» (١).

وودّ الكثير منهم أن تسيخ بهم الأرض، فهم على يقين بضلالة حربهم إلا أنّهم استجابوا لرغباتهم النفسية في حبّ البقاء، وتوقح بعضهم فرموا الحرّ بالنبل وكان ذلك ما يملكونه من حجة في الميدان.

* * *

(١) الكامل ٣: ٢٢٩.

الحرب

وارتبك ابن سعد حينما علم أن الحرّ قد التحق بمعسكر الإمام، وهو من كبار قادة الفرق في جيشه، وخاف أن يلحقه غيره بالإمام، فزحف الباغي الأثيم نحو معسكر الإمام، وأخذ سهماً كأنه كان نابتاً في قلبه، فأطلقه صوب الإمام، وهو يصيح:

« اشهدوا لي عند الأمير أبيّ أوّل من رمى الحسين .. ».

واتخذ بذلك وسيلة لفتح باب الحرب، وطلب من الجيش أن يشهدوا له عند سيّده ابن مرجانة انه أول من رمى ریحانة رسول الله ﷺ ليكون أميره على ثقة من إخلاصه، ووفائه للأمويين، وأن ينفي عنه كل شبهة من أنه غير جادّ في حربه للحسين.

وتتابعت السهام كأنّها المطر على أصحاب الإمام، فلم يبق أحد منهم إلاّ أصابه سهم منها، والتفت الإمام إلى أصحابه، فأذن لهم في الحرب قائلاً:

« قوموا يا كرام فهذه رسل القوم إليكم .. ».

وتقدّمت طلائع الشرف والمجد من اصحاب الإمام إلى ساحة الحرب لتحامي عن دين الله، وتذبّ عن ریحانة رسول الله ﷺ وهم على يقين لا يخامرهم أدنى شكّ أنّهم على الحق، وأن الجيش الأموي على ضلال، قد سخط الله عليه وأحلّ به نقمته.

لقد تقابل اثنان وثلاثون فارساً، وأربعون راجلاً من أصحاب الإمام عليّ مع عشرات الآلاف من الجيش الأموي، وكانت تلك القلّة المؤمنة

كفوءاً لتلك الكثرة التي تملك أضخم العتاد والسلاح، فقد أبدت تلك القلّة من صنوف
البسالة والشجاعة ما يبهر العقول ويحير الألباب.

الحملة الأولى:

وشنّت قوّات ابن سعد هجوماً عاماً واسع النطاق على أصحاب الإمام عليّ (عليه السلام) وخاضوا
معهم معركة ضارية، وقد اشترك فيها المعسكر الأموي بكامل قطعاته، وقد انبرى إليهم
أصحاب الامام بعزم وإخلاص لم يشهد له نظير في جميع الحروب التي جرت في الأرض، فقد
كانوا يخترقون جيش ابن سعد بقلوب أقوى من الصخر، وقد انزلوا بهم خسائر فادحة في
الأرواح والمعدّات.

وقد استشهد نصف أصحاب الإمام عليّ (عليه السلام) في هذه الحملة (١).

المبارزة بين المعسكرين:

ولما سقطت الصفوة الطاهرة من أصحاب الإمام عليّ (عليه السلام) صرعى على أرض الشهادة
والكرامة، هبّ من بقي منهم إلى المبارزة، وقد دعر المعسكر بأسره من بطولاتهم النادرة،
فكانوا يستقبلون الموت بسرور بالغ، وقد ضجّ الجيش من الخسائر الفادحة التي مُني بها، وقد
بادر عمرو بن الحجاج الزبيدي وهو من الأعضاء البارزين في قيادة جيش ابن سعد فهتف في
الجيش ينهاهم عن المبارزة قائلاً:

« يا حمقى أتدرون من تقاتلون، تقاتلون نقاوة فرسان أهل المصر

(١) حياة الإمام الحسين ٣: ٢٠٣.

وقوماً مستميتين، فلا يبرز لهم منكم أحد إلاّ قتلوه، والله لو لم ترموهم إلاّ بالحجارة لقتلتموهم ..» ^(١).

وحكت هذه الكلمات ما اتصف به السادة أصحاب الإمام الحسين من الصفات البارزة فهم فرسان أهل مصر، وذلك بما يملكونه من الشجاعة، وقوة الإرادة وأنهم أهل البصائر فلم يندفعوا إلى نصره الإمام عليه السلام إلاّ على بصيرة من أمرهم، وليسوا كخصومهم الذين تردوا في الغواية، وماجوا في الباطل والضلال، كما أنّهم قوم مستميتون ولا أمل لهم في الحياة.

لقد توفرت في أصحاب الإمام جميع النزعات الخيرة، والصفات الكريمة من الإيمان والوعي والشجاعة وشرف النفس، ويقول المؤرخون: ان ابن سعد استصوب رأي ابن الحجاج فأوعز إلى قواته بتك المبارزة معهم ^(٢) وشنّ عمرو بن الحجاج هجوماً عاماً على من تبقي من أصحاب الإمام، والتحموا معهم التحاماً رهيباً، واشتدّ القتال كأشدّ ما يكون القتال عنفاً ^(٣) ول وقد استنجد عروة بن قيس بابن سعد ليحمده بالرماة والرجال قائلاً:

« ألا ترى ما تلقى خيلي هذا اليوم من هذه العدة اليسيرة، ابعث إليهم الرجال والرماة

..»

وطلب ابن سعد من المنافق شيب بن ربيعي القيام بنجدته فأبى، وقال:

« سبحان الله شيخ مضر، وأهل مصر عامة، تبعته في الرماة لم تجد لهذا غيري!! ..»

(١) و (٢) أنساب الأشراف ٣: ١٩٢.

(٣) حياة الإمام الحسين ٣: ٢١١.

ولما سمع ذلك ابن سعد منه دعى الحسين بن نمير فبعث معه الجففة وخمسمائة من الرماة، فسددوا لأصحاب الحسين عليه السلام السهام فأصابوا خيولهم فعمروها، فصاروا كأثم رجالة، ولم تزدهم هذه الخسارة إلا استبسالاً في القتال، واستهانة بالموت، فثبتوا كالجبال الشامخات، ولم يتراجعوا خطوة واحدة، وقد قاتل معهم الحرّ بن يزيد الرياحي راجلاً، واستمرّ القتال كأعنف وأشدّ ما يكون ضراوة، وقد وصفه المؤرّخون بأنه أشدّ قتال حدث في التاريخ، وقد استمرّ حتى انتصف النهار ^(١).

أداء فريضة الصلاة:

وانتصف النهار وحن ميقات صلاة الظهر فوقف المؤمن المجاهد أبو ثمامة الصائدي فجعل يقلب وجهه في السماء كأنه ينتظر أعزّ شيء عنده وهي أداء صلاة الظهر، فلما رأى الشمس قد زالت التفت إلى الإمام قائلاً:

« نفسي لنفسك الفداء، أرى هؤلاء قد اقتربوا منك، والله لا تقتل حتى أقتل دونك، واحبّ أن ألقى ربّي، وقد صلّيت هذه الصلاة التي قد دنا وقتها .. ».

لقد كان الموت منه كقاب قوسين أو أدنى، وهو لم يغفل عن ذكر ربّه، ولا عن أداء فرائضه، وجميع أصحاب الإمام عليه السلام كانوا على هذا السمت إيماناً بالله، وإخلاصاً في أداء فرائضه.

ورفع الإمام رأسه فجعل يتأمّل في الوقت فرأى أن قد حلّ وقت أداء الفريضة فقال له:

(١) تاريخ ابن الأثير ٣: ٢٩١.

« ذكرت الصلاة، جعلك الله من المصلين الذاكرين، نعم هذا أول وقتها .. ».
وأمر الإمام عليه السلام أصحابه أن يطلبوا من معسكر ابن زياد أن يكفوا عنهم القتال ليصلوا
لرَبِّهم، فسألوهم ذلك فانبرى الرجس الخبيث الحسين ابن نمير قائلاً: « أحمأ لا تقبل » فقال
له حبيب بن مظاهر بسخرية:

« زعمت أن لا تقبل الصلاة من آل رسول الله صلى الله عليه وآله وتقبل منك يا حمار!! ».
وحمل عليه الحسين فسارع إليه حبيب فضرب وجه فرسه بالسيف فثبت به الفرس فسقط
عنها، وبادر إليه أصحابه فاستنقذوه ^(١).

واستجاب أعداء الله . مكيدة . لطلب الإمام فسمحوا له أن يؤدّي فريضة الصلاة، وانبرى
الإمام للصلاة، وتقدّم أمامه سعيد بن عبد الله الحنفي يقيه بنفسه السهام والرماح واغتنم
أعداء الله انشغال الإمام وأصحابه بالصلاة فراحوا يرشقونهم بسهامهم وكان سعيد الحنفي
يبادر نحو السهام فيتقيها ب صدره ونحره، ووقف ثابتاً كالجبل لم ترحزه السهام، ولا الرماح
والحجارة التي اتخذته هدفاً لها ولم يكن يفرغ الإمام من صلاته حتى أثنى سعيد بالجراح
فهوى إلى الأرض يتخبط بدمه وهو يقول:

« اللهم العنهم لعن عاد وثمود، وأبلغ نبيك مّي السلام، وابلغه ما لقيت من ألم الجراح،
فإني أردت بذلك ثوابك ونصرة ذرية نبيك .. ».
والتفت إلى الإمام قائلاً له بصدق وإخلاص:
« أوفيت يا بن رسول الله؟. ».

(١) تأريخ ابن الأثير ٣: ٢٩١.

فأجابه الإمام شاكرًا له:

« نعم أنت أمامي في الجنة .. ».

وملئت نفسه فرحاً حينما سمع قول الإمام، ثم فاضت نفسه العظيمة إلى بارئها فقد أصيب بثلاثة عشر سهماً عدا الضرب والطحن^(١) وكان هذا منتهى ما وصل إليه الوفاء، والإيمان، والولاء للحقّ.

مصراع بقيّة الأنصار:

وتسابقت البقيّة الباقية من أصحاب الإمام من شيوخ وشباب، وأطفال إلى ساحات المعركة، وقد أبلوا بلاءً حسناً يقصر عنه كل وصف واطراء، وقد جاهدوا جهاداً لم يعرف التاريخ له نظيراً في جميع عمليات الحروب التي جرت في الأرض، فقد قابلوا على قلة عددهم الجيوش المكتنفة، وانزلوا بها أفدح الخسائر، ولم تضعف لأي رجل منهم عزيمة، ولم تلن لهم قناة، وقد خضبوا جميعاً بالدماء، وهم يشعرون الغبطة، ويشعرون بالفخار. وقد وقف الإمام العظيم على مصارعهم، فكان يتأمل بوجهه الوديع فيهم، فيراهم مضمخين بدم الشهادة، فكان يقول:

« قنلة كقتلة النبيين وآل النبيين .. »^(٢).

لقد سمت أرواحهم الطاهرة إلى الرفيق الأعلى، وقد حازوا الفخر الذي لا فخر مثله، فقد سجلوا شرفاً لهذه الأمة لا يساويه شرف، وأعطوا للإنسانية أفضل ما قُدم لها من عطاء على امتداد التاريخ.

(١) مقتل الحسين للمقرم: ٢٩٧.

(٢) حياة الإمام الحسين ٣: ٢٣٩.

وعلى أيّ حال فقد شارك أبو الفضل العباس الأنصار الممجدين في جهادهم وخاض معهم غمار الحرب، وكانوا يستمدّون منه البسالة، وقوّة الإرادة والعزم على التضحية، وقد أنقذ بعضهم حينما وقع عليه التفاف من بعض قطعات الجيش الأموي.

مصارع آل النبي:

وبعدما سقطت الصفوة الطيّبة من أصحاب الإمام عليّ صرعى وهي معطرة بدم الشهادة والكرامة، هبّت أبناء الأسرة النبوية كالأسود الضارية للدفاع عن ريحانة رسول الله ﷺ والذبّ عن عقائل النبوّة ومخدّرات الرسالة، وأول من تقدّم إلى البراز منهم شبيه رسول الله ﷺ خلقاً وخلقاً عليّ الأكبر عليّ صرعى فقد آثر الموت وسخر من الحياة في سبيل كرامته، ولا يخضع لحكم الدعيّ ابن الدعيّ، ولما رآه الإمام أخذ يطيل النظر إليه، وقد ذابت نفسه أسى وحسرات، وأشرف على الاحتضار، فرفع شيبته الكريمة نحو السماء وراح يقول بحرارة وألم ممض:

« اللهم اشهد على هؤلاء القوم فقد برز إليهم غلام أشبه الناس برسولك محمد ﷺ خلقاً وخلقاً ومنطقاً، وكنا إذا اشتقنا إلى رؤية نبيك نظرنا إليه ... اللهم امنعهم بركات الأرض وفرقهم تفریقاً، ومزقهم تمزيقاً، واجعلهم طرائق قددا ولا ترضي الولاة عنهم أبداً، فإنهم دعونا لينصرونا، ثم عدّوا علينا يقاتلوننا ... ».

لقد تجسّدت صفات الرسول الأعظم النفسية والخلقية بحفيده عليّ الأكبر عليّ صرعى، وأعظم بهذه الثروة التي ملكها سليل هاشم وفخر عدنان، وقد تقطع قلب الإمام عليّ صرعى على ولده، فصاح بابن سعد:

« مالك قطع الله رحمك، ولا بارك لك في أمرك، وسلّط عليك من يذبحك بعدي على فراشك، كما قطعت رحمي، ولم تحفظ قرابتي من رسول الله ﷺ ثم تلا قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (١) .. ».

وشيع الإمام عليّ عليه السلام فلذة كبده وهو غارق بالأسى والحسرات وخلفه عقائل النبوة، وقد علا منهنّ الصراخ والعيويل على شبيهه رسول الله ﷺ الذي ستتناهب شلوه السيوف والرماح وبرز الفتى مزهواً إلى حومة الحرب، لم يختلج في قلبه خوف ولا رعب، وهو يحمل هيبة جدّه الرسول ﷺ، وشجاعة جدّه الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام وبأس حمزة عمّ أبيه، واباء الحسين، وتوسّط حراب الأعداء، وهو يرتجز بفخر وعزّة قائلاً:

أنا عليّ بن الحسين بن علي نحن وربّ البيت أولى بالنبيّ
تالله لا يحكم فينا ابن الدعي (٢)

أجل . يا بن الحسين . فخر هذه الأمة، ورائد نهضتها وكرامتها، أنت وأبوك أحقّ بالنبي ﷺ وأولى بمركزه ومقامه من هؤلاء الأعداء الذين حوّلوا حياة المسلمين إلى جحيم لا يطاق .

وأعلن عليّ بن الحسين عليه السلام في رجزه عن عزمه الجبار وإرادته الصلبة، وأنّه يؤثّر الموت على الذلّ والخنوع للدعي ابن الدعي، وقد ورث هذه الظاهرة من أبيه سيّد الأباة في الأرض، والتحم فخر هاشم مع أعداء الله، وقد ملأ قلوبهم رعباً وفرعاً، وقد أبدى من الشجاعة والبسالة ما يقصر

(١) سورة آل عمران: ٣٣ .

(٢) تأريخ ابن الأثير ٣: ٢٩٣ .

عنه الوصف، ويقول المؤرّخون: أنّه ذكرهم ببطولات جدّه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام الذي هو أشجع إنسان خلقه الله، فقد قتل فيما يقول المؤرّخون مائة وعشرين فارساً^(١) سوى المجروحين، وألح عليه العطش، وأضر به الظمّ فقفّل راجعاً إلى أبيه يطلب منه جرعة من الماء، ويودعه الوداع الأخير واستقبله أبوه بأسى، فبادر عليّ قائلاً:

« يا أبة العطش قد قتلتني، وثقل الحديد قد أجهدني، فهل الى شربة ماء من سبيل أتقوى بها علي الأعداء، .. ».

والتاع الإمام كأشدّ ما تكون اللوعة المأّ ومحنة، فقال له بصوت خافت، وعيناه تفيضان دموعاً:

« واغوثاه، ما أسرع الملتقى بجدّك، فيسقيك بكأسه شربة لا تظمأ بعدها أبداً .. » .
وأخذ لسانه فمصّه ليريه ظمأه فكان كشقّة مبرد من شدّة العطش ودفع إليه خاتمه ليضعه في فيه^(٢).

لقد كان هذا المنظر الرهيب من أقسى ما فجع به ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله لقد رأى فلذة كبده وهو في ريعان الشباب وغضارة العمر كالبدن في بهائه قد استوعبت الجراحات جسمه الشريف، وقد اشرف على الموت من شدّة العطش، وهو لم يستطع أن يسعفه بجرعة ماء، يقول الحجّة الشيخ عبد الحسين صادق:

يشكو لخير أب ظمأه وما اشتكى ظمأ الحشا الا الى الظامي الصدي
كُلّ حشاشته كصالية الغضا ولساناه ظمأ كشقّة مبرد

(١ و ٢) مقتل الخوارزمي ٢: ٣٠.

فانصاع يؤثره عليه بريقه لو كان ثمة ريقة لم يجمد
وقفل فخر هاشم إلى ساحة الحرب، قد فتكت الجروح بجسمه الشريف وفتت العطش
قلبه، وهو لم يخفل بما هو فيه من آلام لا تطاق، وانما استوعبت مشاعره وعواطفه وحدة أبيه
يراه وقد أحيط به من كل جانب ومكان، وجميع قطعات الجيش متعطشة إلى سفك دمه
للتقرب به إلى ابن مرجانة ... وجعل عليّ بن الحسين يرتجز أمام الأعداء:

الحرب قد بانّت لها حقائق وظهّرت من بعدها مصادق
والله رب العرش لا نفارق جموعكم أو تغمد البوارق^(١)
لقد تجلّت حقائق الحرب، وبرزت معالمها وأهدافها بين الفريقين، فالإمام الحسين إنما
يناضل من أجل رفع الغبن الاجتماعي، وضمان حقوق المظلومين والمضطهدين وتوفير الحياة
الكريمة لهم، والجيش الأموي انما يقاتل من أجل استعباد الناس وجعل المجتمع بستناً للامويين
يستغلون جهودهم، ويرغمونهم على ما يكرهون، وأعلن علي بن الحسين - في رجزه - أنه
سيبقى يناضل عن الأهداف النبيلة والمبادئ العليا حتى تغمد البوارق.

وجعل نجل الحسين يقاتل أشد القتال وأعنفه حتى قتل تمام المائتين^(٢) وقد ضج العسكر
من شدة الخسائر الفادحة التي مُني بها، فقال الرجس الخبيث مرة بن منقذ العبدي عليّ آثام
العرب إن لم أتكلم أباه^(٣) وأسرع الخبيث الدنس إلى شبيهه رسول الله ﷺ فطعنه بالرمح في
ظهره

(١) حياة الامام الحسين ٣: ٢٤٧.

(٢) مقتل الخوارزمي ٢: ٣١.

(٣) مقتل المرقم: ٣١٦.

وضربة ضربة غادرة بالسيف على رأسه، ففلق هامته فاعتنق الفتى فرسه ظنا منه أنه سيرجعه إلى أبيه ليودعه الوداع الأخير إلا أن الفرس حمله إلى معسكر الأعداء، فأحاطوا به من كل جانب، فقطعوه بسيوفهم إربا إربا تشفيا منه لما ألحقه بهم من الخسائر الفادحة، ورفع الفتى صوته:

« عليك مني السلام أبا عبد الله، هذا جدي رسول الله ﷺ قد سقاني بكأسه شربة لا أظمأ بعدها، وهو يقول: ان لك كأسا مذخورة ... ».

وحمل الأثر هذه الكلمات إلى أبيه فقطعت قلبه، ومزقت أحشاءه ففزع إليه وهو خائر القوى مهتد الركن، قد أشرف على الموت، فوضع خده على خد ولده، وهو جثة هامدة، قد قطعت شلوه السيوف فأخذ يذرف أحمر الدموع، وهو يقول بصوت خافت قد حمل شظايا قلبه الممزق:

« قتل الله قوما قتلوك، يا بني ما أجرأهم على الله، وعلى انتهاك حرمة الرسول على الدنيا بعدك العفا ... (١) ».

وكان العباس ؑ إلى جانب أخيه، وقد ذاب قلبه وذهبت نفسه حزنا وأسى على ما حل بهم من عظيم الكارثة وأليم المصاب، لقد قتل ابن أخيه الذي كان ملء فم الدنيا في فضائله ومآثره، فما أعظم رزيتة، وما أجل مصابه!!

وهرعت الطاهرة حفيذة النبي ﷺ زينب ؑ إلى جثمان ابن أخيها فانكبت عليه تضمخه بدموعها، وهي صارخة معولة تندبه بأشجى ما تكون الندبة قائلة:

(١) نسب قریش: ٥٧.

« وابن أخاه ... ».

« واثمة فؤاده .. ».

وأثر منظرها الحزين في نفس الإمام، فجعل يعزيها بمصاحبها الأليم وهو بحالة المحتضر، ويردد بأسى:

« على الدنيا بعدك العفا يا ولدي ... ».

لك الله يا أبا عبد الله على هذه الكوارث التي تميد بالصبر، وتنتز من هولها الجبال، لقد تجرعتها في سبيل هذا الدين الذي عبثت به العصاة المجرمة من الأمويين وعملائهم.

مصارع آل عقيل:

وهبت الفتية الأماجد من آل عقيل إلى الجهاد لتفدي إمام المسلمين وريحانة رسول الله ﷺ وهي ساخرة من الحياة ومستهيئة بالموت وقد نظر الإمام علياً إلى بسالتهم واندفاعهم بشوق إلى الذب عنه، فقال:

« اللهم اقتل قاتل آل عقيل، صبرا آل عقيل ان موعدكم الجنة ... »^(١). وقد ألحقوا بالعدو خسائر فادحة، فقد قاتلوا كالأسود الضارية وعلوا بإرادتهم، وعزمهم الجبار على جميع فصائل ذلك الجيش وقد استشهد منهم تسعة من أطائب الشباب، ومن مفاخر الأبناء الأسرة النبوية، وفيهم يقول الشاعر:

عين جودي بعبرة وعويل واندي إن نددت آل الرسول

(١) حياة الإمام الحسين ٣: ٢٤٩.

سبعة كلهم لصلب علي قد أصيبوا وتسعة لعقيل^(١)
وقد سعدت أرواحهم الطاهرة إلى الفردوس الأعلى حيث مقر النبيين والصدّيقين
والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

مصارع أبناء الحسن:

وسارعت الفتية من أبناء الامام الزكي أبي محمد عليه السلام إلى نصرة عمهم والذب عنه،
وقلوبهم تنزف دماً على ما حل به من عظيم الكوارث والخطوب وكان من بينهم القاسم،
وقد وصفه المؤرخون بأنه كالقمر في جمال طلعتة وبهائه وقد غذاه عمه بمواهبه، وأفرغ عليه
أشعة من روحه حتى صار من أمثلة الكمال والآداب.

وكان القاسم وبقية اخوانه يتطلعون إلى محنة عمهم، ويودون أن يردوا عنه عوادي الأعداء
بدمائهم وأرواحهم، وكان القاسم يقول: « لا يقتل عمي وأنا حي »^(٢).

وانبرى القاسم يطلب الإذن من عمه ليجاهد بين يديه، فاعتنقه الإمام، وعيناه تفيضان
دموعاً، وأبي أن يأذن له إلا أن الفتى ألح عليه، وأخذ يقبل يديه ورجليه ليسمح له بالجهاد،
فأذن له، وانطلق رائد الفتوة الإسلامية إلى ساحة الحرب، ولم يضيف على جسده الشريف
لامة حرب، محتقراً لأولئك الوحوش، وقد التحم معهم يحصد رؤوسهم، ويجندل أبطالهم كأن
المنايا كانت طوع إرادته، وبينما هو يقاتل إذ انقطع شسع نعله الذي هو أشرف من ذلك
الجيش، وأنف سليل النبوة والإمامة أن تكون

(١) المعارف: ٢٠٤.

(٢) حياة الإمام الحسين ٣: ٢٥٥.

إحدى رجله بلا نعل فوقف يشده متحديا لهم، واغتنم هذه الفرصة كلب من كلاب ذلك الجيش وهو عمرو بن سعد الأزدي فقال: والله لأشدن عليه، فأنكر عليه ذلك حميد بن مسلم، وقال له:

« سبحان الله!! وما تريد بذلك، يكفيك هؤلاء القوم الذين ما ييقون على أحد منهم

...».

فلم يعن الخبيث به، وشد عليه فضربه بالسيف على راسه الشريف فهوى إلى الأرض كما تهوي النجوم صريعا يتخبط بدمه القاني، ونادى بأعلى صوته:
« يا عماء أدركني .. ».

وكان الموت أهون على الإمام من هذا النداء، فقد تقطع قلبه وفاضت نفسه أسى وحسرات، وسارع نحو ابن أخيه فعمد إلى قاتله فضربه بالسيف، فاتقاها بساعده فقطعها من المرفق، وطرحه أرضا، وحملت خيل أهل الكوفة لاستنقاذه إلا أن الأثيم هلك تحت حوافر الخيل، وانعطف الإمام نحو ابن أخيه فجعل يوسعه تقبيلا والفتى يفحص يديه ورجليه كالطير المذبوح، وجعل الإمام يخاطبه بذوب روحه:

« بعدا لقوم قتلوك، ومن خصمهم يوم القيامة فيك جدك، عز والله على عمك أن تدعوه فلا

يحييك، أو يحييك فلا ينفك صوت، والله هذا يوم كثر واتره، وقل ناصره .. »^(١).

وحمل الإمام ابن أخيه بين ذراعيه، وهو يفحص يديه ورجليه^(٢) حتى فاضت نفسه الزكية بين يديه، وجاء به فألقاه بجوار ولده علي الأكبر،

(١) البداية والنهاية ٨: ١٨٦.

(٢) حياة الامام الحسين ٣: ٢٥٦.

وسائر القتلى الممجدين من أهل بيته، وأخذ يطيل النظر إليهم وقد تصدع قلبه، وأخذ يدعو على السفكة المجرمين من أعدائه الذين استباحوا قتل ذرية نبيهم، قائلاً:

« اللهم احصهم عدداً، ولا تغادر منهم أحداً، ولا تغفر لهم أبداً صبراً يا بني عمومتي، صبراً يا أهل بيتي، لا رأيتم هواناً بعد هذا اليوم أبداً... »^(١).

وبرز من بعده عون بن عبد الله بن جعفر، ومحمد بن عبد الله بن جعفر وأمهما العقيلة الطاهرة حفيدة الرسول ﷺ زينب الكبرى ؓ وقد نالا شرف الشهادة مع حفيد النبي وريثاته، ولم يبق بعد هؤلاء الصفوة من أهل البيت ؓ إلا أخوة الإمام الحسين ؓ وفي طليعتهم أخوه أبو الفضل العباس ؓ وكان إلى جانب أخيه كقوة ضاربة يحميه من أي اعتداء عليه، وقد شاركه في جميع آلامه وأحزانه.

* * *

(١) مقتل الخوارزمي ٢: ٢٨.

على ضفاف العلقمي

وذاب قلب أبي الفضل أسىً وحرناً، وودَّ أن المنيّة قد اختطفته، ولا يشاهد تلك الكوارث والخطوب التي تذهل كل كائن حيّ، وتميد بالصبر، ولا يقوى على تحملها أي إنسان إلاّ أولي العزم من أنبياء الله الذين امتحن الله قلوبهم للإيمان واصطفاهم على عباده.

ومن بين تلك الكوارث المذهلة التي عاناها أبو الفضل عليه السلام أنّه كان يستقبل في كل لحظة شاباً أو غلاماً لم يراهق الحلم من أهل بيته قد مزّقت أشلاءهم سيوف الأمويين وحرابهم، ويسمع صراخ بنات الرسالة، وعقائل النبوة، وهنّ يلطنن وجوههن، ويندبن بأشجى ما تكون الندبة أولئك البدور الذين تضمخوا بدم الشهادة دفاعاً عن ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله... ومن بين المحن الشاقة التي عاناها أبو الفضل عليه السلام أنّه يرى أخاه، وشقيق روحه الإمام الحسين عليه السلام قد أحاطت به أوغاد أهل الكوفة لتتقرّب بقتله إلى سليل الأعداء ابن مرجانة، وقد زادت هذه المحن إيماناً وتصميماً على مناجزة أعداء الله، وبذله حياته فداءً لسبط رسول الله صلى الله عليه وآله.

ونعرض . يياجاز . إلى شهادته وما رافق ذلك من أحداث.

العباس مع أخوته:

وانبرى بطل كربلاء إلى أشقائه بعد شهادة الفتية من أهل البيت عليهم السلام

فقال لهم:

« تقدّموا يا بني أمّي حتى أراكم نصحتم لله ولرسوله، فانه لا ولد لكم ... »^(١).
لقد طلب من اخوانه المجدين أن يقدموا نفوسهم قرابين لدين الله، وأن ينصحوا في
جهادهم لله ورسوله، ولم يلحظ في تضحيتهم أي اعتبار آخر من النسب وغيره، والتفت أبو
الفضل إلى أخيه عبد الله فقال له:

« تقدّم يا أخي حتى أراك قتيلاً، واحتسبك .. »^(٢).

واستجاب الفتية إلى نداء الحق فهبوا للدفاع عن سيّد العترة وإمام الهدى الحسين
عليه السلام.

قول رخيص:

ومن أهزل الأقوال، وأبعدها عن الحق ما ذكره ابن الأثير ان العباس عليه السلام قال لأخوته: «
تقدّموا حتى أرثكم، فانه لا ولد لكم .. »^(٣).

لقد قالوا بذلك، ليقلّلوا من أهمية هذا العملاق العظيم الذي هو من ذخائر الإسلام،
ومن مفاخر المسلمين، وهل من الممكن أن يفكر فخر هاشم في الناحية المادية في تلك
الساعة الرهيبة التي كان الموت المحتم منه كقاب قوسين أو أدنى، مضافاً إلى الكوارث التي
أحاطت به، فهو يرى أخاه قد أحاطت به جيوش الأمويين، وهو يستغيث فلا يغاث،
ويسمع صراخ عقائل النبوة ومخدرات الرسالة، فقد كان همّه الوحيد الرحيل من

(١) الارشاد: ٢٦٩.

(٢) مقاتل الطالبين: ٨٢.

(٣) تاريخ ابن الأثير ٣: ٢٩٤.

الدنيا، واللحوق بأهل بيته الذين حصدتهم سيوف الأمويين، وبالإضافة لهذا كله فإن السيدة أم البنين أم السادة الأماجد كانت حية فهي التي تحوز ميراث أبنائها لأنها من الطبقة الأولى لو كان لأبنائها أموال فإن أباهم الإمام أمير المؤمنين قد انتقل من هذه الدنيا ولم يخلف صفراء ولا بيضاء، فمن أين جاءت أبنائه الأموال ... ومن المحتمل قوياً أن يكون الوارد في كلام سيدنا أبي الفضل عليه السلام « حتى أتاكم .. » أي أطلب بشاركم فحرّف كلامه.

مصارع اخوة العباس:

واستجاب السادة اخوة العباس إلى نداء أخيهم فهبوا للجهاد، ووطنوا نفوسهم على الموت دفاعاً عن أخيهم ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله، فقد برز عبد الله ابن أمير المؤمنين عليه السلام والتحم مع جيوش الامويين وهو يرتجز:

شيخي علي ذو الفخار الأطول من هاشم الخير الكريم المفضل
هذا حسين بن النبي المرسل عنه نحامي بالحسام المصقل
تفديته نفسي من أخ مبحّل يا رب فامنحني ثواب المنزل
لقد أعرب بهذا الرجز عن اعتزازه وافتخاره بأبيه الامام أمير المؤمنين عليه السلام باب مدينة علم النبي صلى الله عليه وآله ووصيه، كما اعتزّ بأخيه سيّد شباب أهل الجّة الإمام الحسين عليه السلام، وقد أعلن أنّه أمّا يدافع عنه لأنّه ابن النبي صلى الله عليه وآله ويلتمس بذلك أن يمنحه الله الدرجات الرفيعة.
ولم يزل الفتى يقاتل أعنف القتال وأشدّه حتى شدّ عليه رجس من أرجاس أهل الكوفة وهو هاني بن ثابت الحضرمي فقتله ^(١).

(١) حياة الإمام الحسين ٣: ٢٦٢.

وبرز من بعده أخوه جعفر، وكان له من العمر تسعة عشر سنة فجعل يقاتل قتال الأبطال فبرز إليه قاتل أخيه فقتله (١).

وبرز من بعده أخوه عثمان وهو ابن إحدى وعشرين سنة فرماه حوي بسهم فأضعفه، وشدّ عليه رجس من بني دارم وأخذ رأسه ليتقرّب به إلى ابن الأمة الفاجرة عبيدالله بن مرجانة (٢).

لقد سمّت أرواحهم الطاهرة إلى الرفيق الأعلى، وهي أنضر ما تكون تفانياً في مرضاة الله، وأشدّ ما تكون إيماناً بعدالة تضحياتهم التي هي من أنبل التضحيات في العالم. ووقف أبو الفضل على اشقائه الذين مزّقت أشلاءهم سيوف الأعداء فجعل يتأمل في وجوههم المشرقة بنور الإيمان، وأخذ يتذكّر وفاءهم، وسموّ آدابهم، وأخذ يذرف عليهم أحترّ الدموع، وتمنّى أن تكون المنية قد وافته قبلهم، واستعدّ بعد ذلك إلى الشهادة، والفوز برضوان الله.

مصراع أبي الفضل:

ولما رأى أبو الفضل عليه السلام وحدة أخيه، وقتل أصحابه، وأهل بيته الذين باعوا نفوسهم لله انبرى إليه يطلب الرخصة منه ليلاقي مصيره المشرق فلم يسمح له الإمام، وقال له بصوت حزين النبرات:

« أنت صاحب لوائي .. ».

لقد كان الإمام يشعر بالقوّة والحماية ما دام أبو الفضل فهو كقوة ضاربة إلى جانبه يذبّ عنه، ويردّ عنه كيد المعتدين، وألحّ عليه أبو الفضل

(١) الإرشاد: ٢٦٩.

(٢) مقاتل الطالبين: ٨٣.

قائلاً:

« لقد ضاق صدري من هؤلاء المنافقين، وأريد أن آخذ تأري منهم .. ».

لقد ضاق صدره، وسئم من الحياة حينما رأى النجوم المشرقة من أخوته، وأبناء عمومته صرعى مجزرين على رمضاء كربلاء فتحرّق شوقاً للأخذ بثأرهم والالتحاق بهم.

وطلب الإمام منه أن يسعى لتحصيل الماء إلى الأطفال الذين صرعهم العطش فانبرى الشهم النبيل نحو أولئك الممسوخين الذين خلعت قلوبهم من الرحمة والرافة فجعل يعظهم، ويحذّرهم من عذاب الله ونقمته، ووجه خطابه بعد ذلك إلى ابن سعد:

« يا بن سعد هذا الحسين بن بنت رسول الله ﷺ قد قتلتم أصحابه وأهل بيته، وهؤلاء عياله وأولاده عطاشى فاسقوهم من الماء، قد احرق الظمأ قلوبهم، وهو مع ذلك يقول: » دعوني أذهب إلى الروم أو الهند، وأحلّي لكم الحجاز والعراق .. ».

وساد صمت رهيب على قوّات ابن سعد، ووجم الكثيرون، وودّوا أن الأرض تسيخ بهم، فانبرى إليه الرجس الخبيث شمر بن ذي الجوشن فردّ عليه قائلاً:

يا بن أبي تراب، لو كان وجه الأرض كلّ ماءً، وهو تحت أيدينا لما سقيناكم منه قطرة إلاّ أن تدخلوا في بيعة يزيد ...

لقد بلغت الخسّة، ولؤم العنصر، وخبث السريرة بهذا الرجس إلى مستوى ما له من قرار ... وقفل أبو الفضل راجعاً إلى أخيه فأخبره بعتوّ القوم وطغيانهم، وسمع فخر عدنان صراخ الأطفال، وهم يستغيثون،

وينادون:

« العطش العطش .. ».

ورآهم أبو الفضل قد ذبلت شفاهم، وتغيّرت ألوانهم، وأشرفوا على الهلاك، من شدة العطش، وفتح أبو الفضل، وسرى الألم العاصف في محيّا، واندفع ببسالة لإغاثتهم، فركب فرسه، وأخذ معه القرية، فاقتحم الفرات، فانهمز الجيش من بين يديه، واستطاع أن يفكّ الحصار الذي فرض على الماء، فاحتلّه، وكان قلبه الشريف كصالية الغضا من شدة العطش، فاغترف من الماء غرفة ليشرب منه، إلاّ أنه تذكّر عطش أخيه، ومن معه من النساء والأطفال، فرمى الماء من يده، وامتنع أن يروي غليله، وقال:

يا نفس من بعد الحسين هوني وبعده لا كنت أن تكـوني
هذا الحسين وارد المنون وتشـرين بـارد المعـين

تالله ما هذا فعال ديني

ان الإنسانية بكل إجلال واحترام لتحيّي هذه الروح العظيمة التي تألّقت في دنيا الفضيلة والإسلام وهي تلقي على الأجيال أروع الدروس عن الكرامة الإنسانية.

ان هذا الإيثار الذي تجاوز حدود الزمان والمكان كان من أبرز الذاتيات في خلق سيّدنا أبي الفضل، فلم تمكّنه عواطفه المترعة بالولاء والحنان أن يشرب من الماء قبله، فأبي إيثار أنبل أو أصدق من هذا الإيثار، ... واتجه فخر هاشم مزهواً نحو المخيم بعدما ملأ القرية، وهي عنده أثنى من حياته، والتحم مع أعداء الله وأنذال البشرية التحاماً رهيباً فقد أحاطوا به من كلّ جانب ليمنعوه من إيصال الماء إلى عطاشى آل النبي ﷺ،

الدماء وألم الجراح، وشدة العطش، وكان ذلك حقاً هو منتهى ما وصلت إليه الإنسانية من الشرف والوفاء والرحمة ... وبينما هو يركض وهو بتلك الحالة إذ أصاب القرية سهم غادر فأريق ماؤها، ووقف البطل حزيناً، فقد كان إراقة الماء عنده أشدّ عليه من قطع يديه، وشدّ عليه رجس فعلاه بعمود من حديد على رأسه الشريف ففلق هامته، وهوى إلى الأرض، وهو يؤدّي تحيته، ووداعه الأخير إلى أخيه قائلاً:

« عليك مّي السلام أبا عبد الله ... ».

وحمل الأثير محنته إلى أخيه فمزّقت قلبه، ومزّقت أحشاءه، وانطلق نحو نهر العلقمي حيث هوى إلى جنبه أبو الفضل، واقتحم جيوش الأعداء، فوقف على جثمان أخيه فألقى بنفسه عليه، وجعل يضمخه بدموع عينيه، وهو يلفظ شظايا قلبه الذي مزّقت الكوارث قائلاً:

« الآن انكسر ظهري، وقلّت حيلتي، وشمّت بي عدويّ ... ».

وجعل إمام الهدى يطيل النظر إلى جثمان أخيه، وقد انهارت قواه، وانهدّ ركنه وتبددت جميع آماله، وودّ أن الموت قد وافاه قبله، وقد وصف السيّد جعفر الحلّي حالته بقوله:

فمشى لمصرعه الحسين وطرفه	بين الخيام وبينه متقسم
ألفاه محبوب الجمال كأنّه	بدر بمنحطم الوشيج ملثم
فأكب منحنيّاً عليه ودمعه	صبغ البسيط كأنّما هو عندهم
قد رام يلثمه فلم ير موضعاً	لم يدمه عضّ السلاح فيلثم
نادى وقد مالاً البوادي صيحة	صم الصنخور لهولها تتألم
أأخي يهنيك النعيم ولم أحل	ترضى بأن أرزى وأنت منعم
أأخي من يحمي بنات محمد	اذ صرن يسترحمن من لا يرحم

ما خلت بعدك أن تشلّ سواعدي
لتسواك يلطم بالأكف وهذه
ما بين مصرعك الفضيع ومصرعي
هذا حسامك من يذلّ به العدا
هونت يا بابن أبي مصارع فتي
وهو وصف دقيق للحالة الراهنة التي حلّت بسيد الشهداء بعد فقده لأخيه ووصف
شاعر آخر وهو الحاج محمد رضا الأزري وضع الإمام عليّاً بقوله:

وهوى عليه ما هنالك قاتلاً
اليوم سار عن الكتائب كبشها
اليوم آل إلى التفرق جمعنا
اليوم نامت أعين بك لم تنم
اشقيق روحي هل تراك علمت ان
قد خلت اطبقت السماء على الثرى
لكن أهان الخطب عندي انني
ومهما قال الشعراء والكتّاب فانهم لا يستطيعون أن يصفون ما ألمّ بالإمام من فادح
الحزن، وعظيم المصاب، ووصفه أرباب المقاتل بأنّه قام من أخيه وهو لا يتمكّن أن ينقل
قدميه، وقد بان عليه الانكسار، وهو الصبور، واتجه صوب المخيم، وهو يكفكف دموعه،
فاستقبلته سكينه قائلة:

«أين عمّي أبو الفضل، ..».

ففرق بالبكاء، واخبرها بنبرات متقطّعة من شدّة البكاء بشهادته،

وذعرت سكينه، وعلا صراخها، ولما سمعت بطله كربلاء حفيده الرسول ﷺ بشهادة أخيها الذي ما ترك لوناً من ألوان البرّ والمعروف إلاّ قدّمه لها أخذت تعاني آلام الاحتضار، ووضعت يدها على قلبها المذاب، وهي تصيح:

« وا أخاه، واعبّاساه، وا ضعيتنا بعدك ... ».

يا لهول الفاجعة.

يا لهول الكارثة.

لقد ضجّت البقعة من كثرة الصراخ والبكاء، وأخذت عقائل النبوة يلطمن الوجوه وقد أيقن بالضياح بعده، وشاركهّن الثاكل الحزين أبو الشهداء في مخنتهّن ومصابهنّ، وقد علا صوته قائلاً:

« واضيعتنا بعدك يا أبا الفضل ... ».

لقد شعر أبو عبد الله ﷺ بالضبيعة والغربة بعد فقدده لأخيه الذي ليس مثله أخ في برّه ووفائه ومواساته، فكانت فاجعته به من أفسى ما مُني به من المصائب والكوارث.

وداعاً يا قمر بني هاشم.

وداعاً يا فجر كل ليل.

وداعاً يا رمز المواساة والوفاء.

سلام عليك يوم ولدت، ويوم استشهدت، ويوم تُبعث حيّاً.

المحتويات

١١	تقديم
٢١	ولادته ونشأته
٢٣	نسبه الوضاح
٢٣	الأب:
٢٤	الأم:
٢٩	الوليد العظيم:
٣٠	سنة ولادته:
٣٠	تسميته:
٣٠	كنيته:
٣١	ألقابه:
٣٥	ملاحمه:
٣٦	تعويذ أم البنين له:
٣٦	مع أبيه:
٣٧	نشأته:
٤٠	انطباعات عن شخصيته
٤٠	١ . الإمام زين العابدين:
٤١	٢ . الإمام الصادق:
٤١	أ . نفاذ البصيرة:
٤٢	ب . الصلابة في الإيمان:
٤٢	ج . الجهاد مع الحسين:
٤٢	د . زيارة الإمام الصادق:
٤٦	٣ . الإمام الحجة:
٥٥	١ . الشجاعة:
٥٦	مع الشعراء:

٥٩.....	٢ . الإيمان بالله:
٦٠.....	٣ . الإباء:
٦٠.....	٤ . الصبر:
٦١.....	٥ . الوفاء:
٦٣.....	٧ . الرأفة والرحمة:
٧٠.....	حكومة الامام
٧١.....	منهج حكم الإمام:
٧١.....	١ . بسط الحريات:
٧٣.....	٢ . نشر الوعي الديني:
٧٤.....	٣ . نشر الوعي السياسي:
٧٥.....	٤ . إلغاء المحسوبيات:
٧٦.....	٥ . القضاء على الفقر:
٧٧.....	القوى المعارضة للإمام:
٨٢.....	إعلان الحرب:
٨٥.....	دعوة الإمام إلى السلم:
٨٨.....	التحكيم:
٨٩.....	ثورة الخوارج:
٩١.....	النتائج الفظيعة:
٩٢.....	مصرع الإمام:
٩٤.....	وصايا خالدة:
٩٦.....	إلى جنة المأوى:
٩٧.....	تجهيزه:
٩٨.....	خلافة الإمام الحسن:
٩٩.....	إعلان معاوية للحرب:
١٠٠.....	في المدائن:
١٠٣.....	ضرورة الصلح:

١٠٥	كابوس رهيب
١٠٨	إبادة القوى الواعية:
١٠٨	١ . حجر بن عدّي:
١٠٩	٢ . عمرو بن الحمق:
١١٠	٣ . رشيد المهجري:
١١١	مناهضة أهل البيت:
١١٤	إشاعة الظلم:
١١٥	منح الخلافة ليزيد:
١١٥	إغتيال الشخصيات الإسلامية:
١١٨	فتنة الأمويين:
١١٩	معارضة الامام الحسين لمعاوية:
١٢٠	مؤتمر الامام الحسين في مكّة:
١٢١	هلاك معاوية:
١٢٣	مع الثورة الحسينية
١٢٧	إلى مكّة المكرمة:
١٢٨	فزع السلطة بمكّة:
١٢٩	تحرك الشيعة في الكوفة:
١٣٠	رسائل الكوفة:
١٣٠	إيفاد مسلم إلى الكوفة:
١٣٢	سفر ابن زياد إلى الكوفة:
١٣٣	المخططات الرهيبة:
١٣٤	التجسس على مسلم:
١٣٥	اعتقال هانيء:
١٣٥	انتفاضة مذحج:
١٣٧	ثورة مسلم:
١٣٨	حرب الأعصاب:
١٣٩	في ضيافة طوعة:

١٤٢	الإفشاء بمسلم:
١٤٣	المهجوم على مسلم:
١٤٦	أسره:
١٤٨	مع ابن مرجانة:
١٤٨	إلى الرفيق الأعلى:
١٤٩	إعدام هاني:
١٤٩	السحل في الشوارع:
١٥٥	وصول النبا بمقتل مسلم:
١٥٨	الالتقاء بالحر:
١٦٠	خطاب الإمام في الجيش:
١٦٣	خطاب الإمام:
١٦٥	رسالة ابن مرجانة إلى الحر:
١٦٦	في كربلاء:
١٦٩	خروج الجيوش لحرب الإمام الحسين:
١٧٠	خطبة ابن زياد:
١٧١	احتلال الفرات:
١٧٣	سقاية العباس لأهل البيت:
١٧٤	أمان الشمر للعباس وأخوته:
١٧٥	زحف الجيوش لحرب الحسين:
١٧٩	الإمام يأذن لأصحابه بمفارقتة:
١٨٠	جواب أهل البيت:
١٨١	جواب أصحابه:
١٨٣	إحياء الليل بالعبادة: